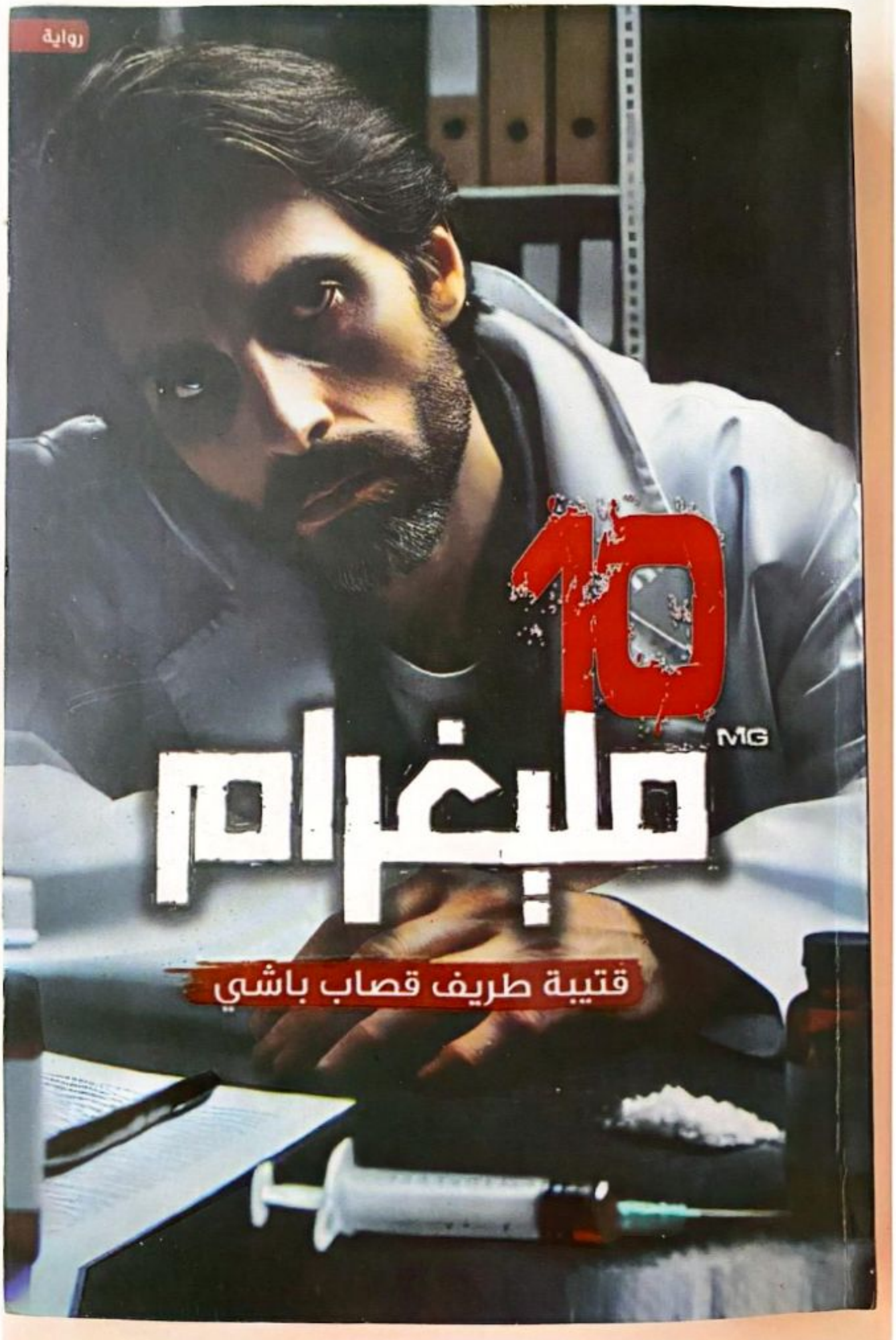
رواية
10
MG
ملغرام
قتيبة طريف قصاب باشي

١٠ مليغرام

روايـة

قتيبة طريف قصاب باشي

رسومات: لمى الجمعة
@LAMA_BASHAR

الطبعة الأولى
1446 هـ - 2025 م

١ مليغرام

إهداء

«إلى من عاشوا غرباء بين أهلهم..
إلى من حطمهم ظلم المجتمع وأحكامه الجائرة..
إلى من قاوموا الجهل والألم بكل ما أوتوا من قوة..
أهـدي هـذا الكتـاب ليكـون شـاهداً عـلى معاناتهـم وصوتـاً
لحكاياتهـم التـي تسـتحق أن تُسـمع.»

@ART_OF_BOOK

١٠ مليغرام

.من قَرأَ ليس كمن سَمِعَ..

ومَن سَمِعَ ليس كمن رَأى..

ومن رَأى ليس كمن فَعَلَ...

١٠ مليغرام

-١-

«الوعي والضمير هما الصفتان الأكثر إثارة للجدل على مَرِّ التاريخ البشري، مع أن لهما ارتباطًا وثيقًا ببعضهما؛ لتأثيرهما المباشر على طريقة تفكير الفرد وبالتالي أسلوب حياته، وبما أن المجتمعات مكوَّنة من أفراد، يمكن القول إنها تمثِّل مجموع أساليب حياة هؤلاء الأفراد الذين يشكِّلونها، وبطريقة أخرى، يمكن القول إنَّ المجتمعات هي انعكاس لمجموع وعي وضمائر أولئك الأفراد، إذًن، لبناء مجتمعات سليمة علينا أولًا بناء أفراد عاقلة، وبالتالي يتوجَّب علينا دراسة الوعي والضمير الحي المكوِّن لهذا الفرد، وهذا موضوع شائك؛ لأن –كما اتفقنا– لكل فرد وعي، وبالتالي الموضوع يتطلَّب الكثير من الدراسات المختلفة للوصول إلى تصنيفات

تشمل الغالبية العظمى من البشر، وعندما نقول الغالبية، فإن هذه الكلمة تشير إلى أكثر من تسعين بالمائة من الأفراد التي استطاع العلم، والطب، وحتى الدين تحديد سمات الضمير والوعي لديهم، لكن ماذا عن العشرة بالمائة المتبقية؟ هل لوجودهم تأثير على المجتمعات ككل؟ ماذا إذا شاءت الصدفة وجمعت مجموعة من هذه الأفراد في مكان ما معين ليشكِّلوا مجتمعًا خاصًّا بهم، وبالتالي كيانًا مستقلًا له أسلوب حياته المنفرد خارج القطيع العام؟!

لنعيد ترتيب الأفكار المطروحة بطريقة أخرى لنفهم الطريق المتجهين إليه..

في عصرنا الحالي، تم تصنيف ودراسة الوعي والضمير لدى غالبية أفراد البشرية، وبالتالي تمت دراسة وتحديد آلية خاصة لتنويم هذا الوعي والضمير وإحكام السيطرة على أسلوب حياة الفرد المكوِّن للمجتمعات.. أمَّا بالنسبة للقلة التي لم يتم حصرها، وفهم وعيها، وطريقة اختراقها للسيطرة عليها، ولا حتى نفعت كل وسائل التنويم التي اختُرعت لمعالجة مشكلة الضمير لديها، واستطاعوا أن يبرزوا في تلك المجتمعات على أنهم هم المصلِحون، وحين نادوا بالصحوة للوعي والضمير بين الأفراد تم تكميم دراساتهم وأفكارهم وحتى أفواههم حتى لا يستفيق غالبية الناس من سُباتهم، حتى أن كل تلك الحكومات والدول وحتى الملوك على مر العصور قد دفعوا الغالي والنفيس للوصول إلى تغييب الوعي وتنويم الضمير الذي ينادي بالحياة المثالية للبشرية جمعاء، وكل ذلك تم عن طريق العقاقير على الرغم من اختلاف مسمَّياتها على مر التاريخ..»

هكذا قرَّر الدكتور غسان أن يفتتح الجلسة النهائية له للحصول على درجة الدكتوراه في العقاقير من جامعة ميونخ في ألمانيا، بعد أن درس الطب النفسي العام في ذات الجامعة لخمس سنوات، وانتهى بالماجستير والدكتوراه في العقاقير لخمس سنوات أخرى، وعمل لمدة عشر سنوات في مراكز مهمة ومؤثرة للمساهمة في تطوير واختراع عقاقير كان لها الدور الأبرز في المشهد العالمي العام لتحسين الصحة النفسية واضطراباتها المعقَّدة، ليعود إلى بلاده ويفتتح مركزًا لإعادة التأهيل النفسي على أمل أن ينشر علمه وأبحاثه التي عملَ عليها طوال حياته لتحسين حياة الفرد النفسية في المجتمعات العربية، هذه هي طبيعة الأمور، أو هكذا يُفهم الأمر في البداية على الأقل، لكن حالَه حال الكثيرين من الأطباء النفسيين الذين استثمروا سنوات حياتهم في هذا الطريق، وأنفقوا الكثير من الأموال لنشر مثل هذه الأفكار في الشرق الأوسط، لكنها غالبًا ما قوبلت بالتجاهل أو الاستهزاء، وفي بعض الدول والمدن وصل الأمر بهم إلى أن يحاربوهم تحت اسم القانون أو الدين والعُرف، وإن غالبوهم فيلجؤون إلى التهديد والعنف بوسائلهم الشخصية الخاصة التي تحكم بالمال والسلطة..

ومع ذلك وبإصرار كبير قرَّر غسان استثمار ثروته التي لا بأس بها بتدشين عيادة نفسية مجهَّزة ومرخَّصة من الدولة في مركز البلدة لأهداف غامضة أخرى..

في ظاهر الأمر يبدو للجميع على أن غسان الطبيب النفسي الذي تعب واستثمر العديد من سنوات حياته في ألمانيا لدراسة الفرع الأكثر تميُّزًا وتعقيدًا في هذا المجال، بهدف العودة إلى بلده، ويساعد في اختراع عقاقير مفيدة للناس للتخفيف من آلامهم، أو حتى علاج الكثير من الحالات

١٠ مليغرام

النفسية التي يخاف الناس من الإعلان عنها على الرغم من تفشّيها بشكل ملحوظ في المجتمع..

لكن كان للدكتور غسان نوايا أخرى تمامًا.. هو عازمٌ على الانتقام على ما يبدو.. هذا هو تمامًا مغزى عودته إلى هذه البلدة التي لطالما كانت في نظره البلدة المشؤومة التي دمَّرت عائلته وزرعت في نفسه الحقد والغل على كل أولئك الذين ظلموه قبل أن يغادر، فقصته كان لها صدى كبير فيها، وأصبحت الألقاب الشنيعة لصيقة به أينما ذهب، لتتحوَّل فيما بعد إلى كوابيس تلاحقه في أحلامه.

***

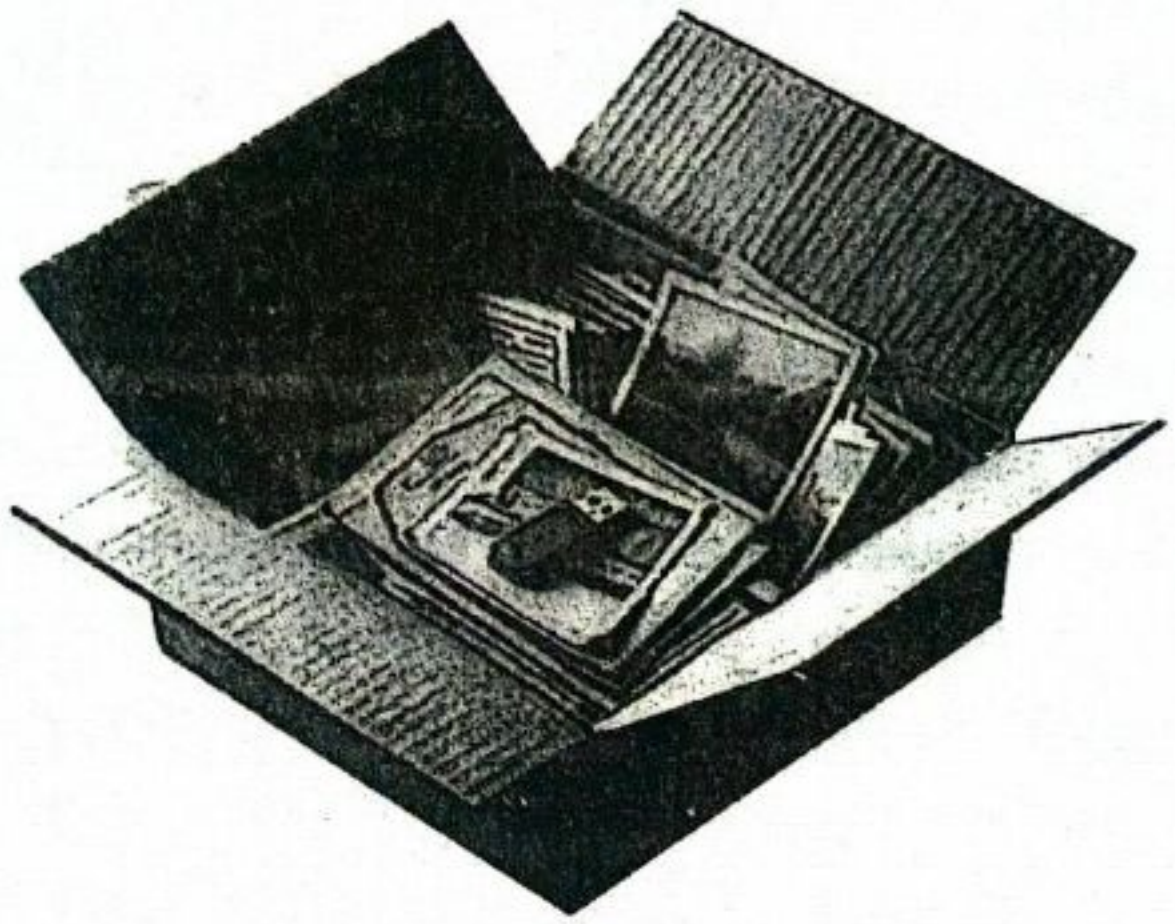

-٢-

– أنا الدكتور غسان..

وُلدت قبل أخي التوأم بثلاث دقائق..

ثلاث دقائق كانت كافية لتحديد مجرى حياتي وصفاتها العامة..

ثلاث دقائق يائسة أصبحت فيها أنا الأخ الأكبر، وحيان توأمي هو الطفل الصغير المدلَّل، عداك عن أني كنت غامق البشرة، أسود العينين، كثيف الشعر، أي أن ملامحي شرقية بامتياز، أمَّا الطفل المدلَّل جاء مخالفًا للتوقعات، فاتح اللون، أصهب الشعر، عسليّ العينين، بهيَّ الطلة..

تربينا نحن الاثنان في بيئة طغى على ملامحها التمييز من طرف والدي؛ لأنه كان يميل كلَّ الميْل لأخي الصغير حيان، أمَّا والدتي فكانت معتدلة

التصرفات، لا تفرّق بيننا إلا عندما نُقدِم على فعل أمر سيئ فأنال أنا القسم الأكبر من التوبيخ، أمّا حيان، فيكون من مسؤوليتي أنا بصفتي أخاه الكبير الذي يُلام على أفعاله أيضًا..

مضت السنون وبدأت الفجوة التي خلقها والدي بيني وبين أخي تكبر سرًا يومًا بعد يوم، أصبحت أميل إلى العقلانية والحكمة في التصرفات، بينما حيان بَدَا أكثر طيشًا لأنه المدلَّل وذنوبه تُغفر بدمعتين رقيقتين من تلك العيون العسلية.. تقدمنا نحن الاثنان إلى امتحان الثانوية العامة، وظهرت النتائج التي أثبتت حكمتي ونضجي، وفي الوقت ذاته، أثبتت طيش أخي واستهتاره، فكان من المفترض أن تكون هذه النتائج موجعة لوالدينا بعد تلك الفتنة التي أثاروها بيننا نحن التوأمان عبر السنين..

لكن القلب لا عقل له، ومن أَحَبَّ من قلبه يتغافل عن أخطاء المحبوب.. وبالطبع كانت هذه المحبة من نصيب حيان..

أمّا محبتي، فكانت ناتجة من العقل لأنني في النهاية ابنهم، رغمًا عنهم، ومحبة العقل تحاسب وتجازى على أعمالها صغيرة كانت أم كبيرة..

كان حيان في تلك الفترة قد تعرَّف على مجموعة من رفاق السوء الذين يميلون إلى تناول المشروبات الكحولية والسهرات الليلية ومنها إلى تدخين الحشيش في أوقات الفراغ التي كان وقتهم مليئًا بها.. وكان على الرغم من علاماته المتدنية في النتائج التي لا تؤهله للدخول إلى اختصاص محترم في الجامعة عازمًا على الاحتفال، وبالتالي جاء إلى والديه طالبًا الإذن منهم بالغياب عن المنزل لثلاثة أيام ليذهب مع أصدقائه إلى الشاطئ والاحتفال بهذا الإنجاز العظيم، وما كان من والديه إلا أن أقبَلا عليه بوجهٍ بشوش مع تزويده بالنقود الوفيرة لتأمين احتياجاته خلال تلك الرحلة..

١٠ مليغرام

أمَّا بالنسبة لي، فالموضوع كان مختلفًا تمامًا، فبعد صدور النتائج أصبحت أكثر جدية؛ لأن تحقيق حلمي أصبح ممكنًا الآن، وهو الابتعاد عن عائلتي وتكوين ذاتي عن طريق منحة دراسية خارج البلاد، وبالتالي أصبح طبيب العائلة، وهذا يعني أن ألفت انتباه والديَّ ليُوليَاني قليلًا من الاهتمام الذي كان يحظى به أخي المدلَّل، ولعلهم يحبونني وتحظى إنجازاتي بالتقدير، حينها يتبدد جزء من العُقَد النفسية التي زرعوها في داخلي..

كنت على دراية بكل خطوات أخي وأصدقائه فأنا خازن أسراره على الرغم من بشاعتها، وكنت في أغلب الأوقات أُغطي الكثير من غياباته خارج المنزل وأتستر عليه، خاصة، عندما يعود مخمورًا أو منتشيًا إثر سهراته الصاخبة مع أصدقائه.. لذلك عندما عرض عليَّ الذهاب معهم للاحتفال قابلته بالرفض القاطع وأخبرته أن لدي مستقبل كبير على المحَك، وأن مثل هذه التصرفات الغبية والطائشة هي للفاشلين فقط وتودي بهم إلى الهاوية في نهاية المطاف.. لم يبالِ حيان لهذا الكلام بل استهزأ واصفًا إياي بأني شخص كريه ومنظوري للحياة ممل وسلبي، ولم يكتفِ بذلك، بل طلبَ منّي مبلغًا من المال أيضًا، لأن –حسب زعمه– هذا الاحتفال سوف يكلّفهم أموالًا كثيرة؛ لأنهم مقبلون على تعاطي أنواع جديدة منتشرة في السوق تُشعرك أنك في عالم آخر وتضيف البهجة والسعادة للحياة..

لم أبالِ صراحةً لكل هذا الحديث وأعطيته المال الذي يريد والذي كنت قد ادخرته من مصروفي الشخصي، أردت فقط أن يغيب حيان عن وجهي لأستطيع التركيز على إقناع والدي بالتقدُّم لتلك المنحة التي من شأنها أن تغيّر مجرى حياتي.. حتى جاءت تلك الليلة المظلمة التي انقلبت فيها كل الأمور..

رنَّ هاتفي في الساعة الرابعة فجرًا، نظرت إليه لأجد أن المتصل هو أخي حيان، فأجبت ببرود لأنني معتاد على مثل هذه المكالمات الليلة منه ليسمعني صوت الاحتفالات وضحكاتهم ويخبرني بطريقة مستفزة بما فاتني جرَّاء عدم الذهاب معه.. لكن هذه المرة كانت المكالمة مختلفة، فالصوت الذي ظهر من المكالمة ليس صوت حيان، بل هو صوت هادئ لرجل قدير يتكلم بهدوء ووقار..

– مرحبًا يا أخي، هل أنت السيد غسان أخو حيان؟

أجبت بصوت غير واعٍ:

– نعم، هذا أنا، مَن أنت لتتكلم من هاتف أخي؟

– أنا الدكتور عبد الرحمن من قسم الطوارئ في المستشفى المركزي، أتصل بك في هذا الوقت ومن هاتف أخيك لأخبرك أنه قد توفَّاه الله إثر جرعة زائدة من المخدرات، وعند نقلِه إلى المستشفى كان الأوان قد فات، فتفضلوا لاستلام جثته لتقوموا بمراسم الدفن.

سرَتْ الرعشة في أنحاء جسدي، وقفت لاهثًا وضربات قلبي تكاد تمزِّق صدري وصرخت بصوت منفعل وحزين:

– أرجوك لا، قل لي إن هذه مزحة وإنك صديق حيان وتتصل الآن لتعكر مزاجي بمزاحكم الثقيل. أرجوك قل ذلك..

ردَّ الطبيب بصوت هادئ:

– مع الأسف يا أخي، إن هذه المكالمة حقيقية، وإن أخاك قد فارق الحياة، وننتظركم في المشفى لإتمام عملية التعرُّف على الجثة وتسليمها لذويها.

أغلقت الهاتف ووقفت في وسط الغرفة بذهول بعد أن جاء والداي إثر الصرخة، وبهلع شديد اقتربوا مني ليسألوني عن سبب الصراخ والبكاء لأقع على الأرض وأضرب بكفيَّ على وجهي وأنوح بصوت مكسور حزين:

– مات حيان يا أمي.. مات أخي الصغير يا أبي..

بعد أن تسلَّمنا الجثة وقمنا بإجراءات الدفن وانتهت أيام العزاء، أصرَّ والدي على معرفة الحقيقة وما جرى ذلك اليوم، فلم يقتنع بتقرير الطبيب الشرعي الذي ينص على أن حيان كان متعاطٍ منذ فترة طويلة، وأن اختلاط المواد المخدرة هي التي تسببت له بتسمم في الدم وتناول جرعة زائدة كان سبب الوفاة الرئيسي.. عزم والدي على معرفة الحقيقة وتفاصيل ذلك اليوم من أصدقائه، فجاء واستجوبني إن كنت على دراية بشيء من التفاصيل، لكنني أنكرت كي لا يصب جام غضبه علي، وبُحت له بأسماء أصدقائه المقربين..

وفي اليوم التالي اتصل أبي على أهالي أصدقاء أخي المرحوم ليجتمعوا في بيتنا ويرووا لنا القصة كاملة، لأن من وجهة نظر أبي فإن أخي حيان لا يمكن أن تصدر منه هذه الأشياء، بل أكد لأمي أن أصدقاءه الأشرار هم من أرغموه على تناول المخدرات في تلك الليلة، وأهالي أصدقائه الذين تم استدعاؤهم للتحقيق في وفاة حيان قد دفعوا الكثير من الأموال للطبيب الشرعي ليكتب مثل هذا التقرير ليبعد الشبهات عن أصدقائه الذين قتلوه عمدًا ثم قاموا برشوة الضابط القائم على التحقيق ليغلق ملف القضية على أنها جرعة زائدة لشخص متعاطٍ..

بهذا السيناريو أقنع والدي والدتي لكي تهدأ قبل أن تصاب بجلطة قلبية جرّاء حزنها على محبوبها وعلى سُمعتها بين أبناء العائلة والجيران والبلدة بأكملها التي ضجت بخبر مفزع كهذا.. وفي ذات الوقت رفع أبي سقف توقعاته بأن يثبت براءة ابنه من هذه التهمة على مرأى الجميع لتستريح روحه الطاهرة في قبره..

اجتمع أصدقاء أخي مع عائلاتهم لسماع القصة الكاملة، وأجمع الجميع على أنهم بدأوا بالتعاطي منذ حوالي سنة تقريبًا، وكان حيان هو من يجلب لهم المخدرات عن طريق معارفه، وأنها في بادئ الأمر كانت للتسلية والمتعة ثم تحوّلت إلى إدمان، وبدأ حيان برفع الجرعات شيئًا فشيئًا حتى جاء في تلك الليلة ومعه حبوب المورفين التي قال عنها إنها كلفته ثروة للحصول عليها لكنها تستحق التجربة.. سألهم والدي حينها من أين لكم بالمال لشراء تلك الأشياء؟ وجاء الجواب الصادم الذي غيَّر من حياتي وحوَّلها من سيىء إلى جحيم على الفور.. أجابوا بأنه كان دور حيان في الدفع في تلك الليلة، لذلك عندما جاء لنا بمثل هذا الصنف الثقيل الذي يصعب علينا شراؤه سألناه عن المصدر، قال: المال هو المصدر، فلقد حصلت على تبرع سخي من أخي غسان عندما علم أنني مقبل على تجربة مواد جديدة لكي نشعر بالسعادة الحقيقية هذه الليلة..

توجهت كل أنظار الحاضرين إليَّ، حينها بعد أن شهقت مذهولًا من الطريقة التي تحدثوا فيها عن القصة وكأنني أنا السبب وأنا الممول وأنا المجرم الحقيقي وراء هذه الكارثة.. ثوانٍ قليلة ودخلت أمي من خلف الباب وتنقض عليَّ لتضربني بيديها وتلفهم حول عنقي لتخنقني وسط تجمهر الجميع وتدخلهم لإبعادها وتهدئتها وهي تبكي بحرقة وتصرخ بأنني مجرم

حقير وتتهمني بالقتل أمام الجميع لأنني كنت أغار وأحقد على أخي منذ الصغر لأنه الأجمل والأكثر روعة والأقرب إلى قلبها، وهكذا حتى هدأت فجأة وغابت عن الوعي وبدأت الدماء تنزف من أنفها وأذنيها، اقتربتُ حينها لحملها مع الحاضرين لأقرب سيارة لنقلها إلى المستشفى القريب، لكن أبي كان عازمًا على إلقاء اللوم على أحد ما في تلك الليلة لمقتل أخي وإنقاذ سمعتهم أمام الناس، فاختار الزمان والمكان المناسب، والشخص المناسب الذي اتفق عليه كل من حضر بالإجماع خاصةً أن أمي بين أيدينا مضرجة بالدماء بسببي أيضًا، فاستغل أبي الموقف شر استغلال، وأمسكني من يدي التي التفت حول أمي للمساعدة في حملها وصفعني على وجهي أمام الجميع ليقول بصوت هزَّ جدران المنزل غضبًا: – (عليك اللعنة يا قابيل.. عليك اللعنة يا قاتل أخيك.. فلتحل عليك لعنة من الله أيها المجرم.. عليك اللعنة يا قابيل..)

تجمدت في مكاني إثر هذا الكلام الذي صدر من والدي على مرأى ومسمع الجميع وشحب لوني وكأن روحي خرجت من جسدي، برزت عيناي للخارج لتصوِّر المشهد بدقة عالية ليحفر ألمه في عقلي وقلبي الذي نضبت دقاته، ثم غادروا ليسعفوا والدتي وبقيت وحدي متقوقعًا على نفسي مجردًا من روحي، أبكي بحزن وغضب وألوم نفسي على فعلتي الشنيعة..

لم يعد أبي في ذلك اليوم، فلقد توفيت أمي جرَّاء جلطة قلبية من الحزن أم الغضب أم كليهما.. لا أحد يعلم، لكن الطبيب قال إن قلبها لم يتحمل وانفجرت الأوعية الدموية في كل مكان في جسدها..

أمّا أبي، فبعد هذا الخبر أغشي عليه ودخل في غيبوبة.. وعندما أقبلنا على الدفن في اليوم التالي كانت نظرات الجيران والأقارب لي مختلفة، ينظرون إليَّ على أنني قاتل مرعب، بل سفاح العائلة، لم يتجرأ أحد على الاقتراب مني خلال أيام العزاء، وبدأت تتردد كلمات أصبحت أسمعها بالقرب مني على أني قابيل القاتل.. إلى أن تجرأ عمي على قول ذلك في وجهي عند انتهاء أيام العزاء:

– ماذا سوف تفعل الآن يا قابيل بعد قتلك لأخيك وأمك؟ هل ستُقبل على قتل أبيك المسكين أيضًا؟

انعقد لساني واعتزلت الجميع في منزلي، وأصبحت أذهب إلى المشفى لأطمئن على حال أبي كل يومين لأرى الوجوه في المنطقة تنظر إلي باحتقار ويتهامسون فيما بينهم وينبهون بعضهم بالنظر إليَّ أنا قابيل..

خير مثال على المجرم الذي لا قلب له.. سفاح العصر الحديث..

استيقظ والدي بعد خمسة شهور وقال لعمي أنه لا يريد لقائي أبدًا فور خروجه من المشفى، خلال كل ذلك الوقت كنت محاصرًا في المنزل خائفًا من مواجهة الناس في الشارع ومنبوذًا في الجامعة لأنني حزت على لقبي بجدارة «قابيل قاتل أخيه وأمه»، بالتالي عزمت على الرحيل عن هذه البلاد إلى الأبد لأنسى ظلمهم وحقدهم، بل لأنسى ذلك اللقب المشؤوم الذي ألبسوني اياه ظلمًا، لذا قدمت على المنحة لألمانيا في الوقت المناسب، وعندما علمت أنه تم قبولي أغلقت باب المنزل بعد أن حصلت على مبلغ جيد جرّاء بيع عمي لسيارة والدي لأغادر بعيدًا عن وجهه، وحين ركبت الطائرة مغادرًا وعدت نفسي أنني لن أنسى وجوه أصدقاء أخي، ولن أنسى ظلم أبي، ولن أغفر لكل من كان السبب في ذلك..

وسأعود يومًا ما لأنتقم وأتمنى أن يكونوا جميعًا على قيد الحياة لأسلبهم إياها بأشد الطرق عذابًا في الدنيا..

وصلت إلى ألمانيا ودرست الطب النفسي وكنت من المتفوقين في كل السنوات، ثم حصلت على منحة مقدَّمة من الجامعة للماجستير والدكتوراه بعدها في أصعب الاختصاصات وأكثرها تعقيدًا (العقاقير)، عملت في قسم براءات الاختراع في الجامعة، ودرست تاريخ العقاقير وأصبحت مهووسًا في هذا العالم حتى أنني قدمت الكثير من الدراسات حول نشأة أكثر العقاقير شهرة كيف ولماذا استُخدمت، ولم أكتفِ بذلك، بل وقدمت مراجع ودراسات تحليلية نفسية كاملة لأولئك الذين اكتشفوا وطوَّروا هذه العقاقير المخيفة التي بين يدينا الآن، ولفت ذلك انتباه أكبر وأعرق مستشفى للأمراض النفسية في ميونخ فقُدم لي عرضًا بالإشراف مع أفضل الأطباء في ألمانيا على الحالات الفريدة والنادرة في المستشفى لتقديم تشخيصات ودراسات جديدة والتي من شأنها أن تغيِّر الكثير من المفاهيم المغلوطة التي نسبت للأمراض النفسية وإدمان العقاقير، وطبعًا وافقت وعملت به لمدة عشرة أعوام..

على الرغم من كل هذه الإنجازات والحياة المليئة بالعمل والتقدم لم تفارقني الكوابيس المزعجة التي حاولت بشتى الوسائل أن أجعلها تختفي، لكن ما باليد حيلة سوى جعلها أخف وأقل وطأة، وبالتالي كانت لي جرعات مخفَّفة من المهدئات العلاجية لتحسين جودة النوم وكانت عقاقير غير مسببة للإدمان في البداية، ولكني في بعض الأحيان اضطررت إلى اللجوء إلى أخبث العقاقير خلسةً (المورفين) لأتجنب نوبات ضعفي واضطرابي أثناء قيامي بعملي، وفي ذات الوقت طريقة استعمالها كانت شهرًا بشهر،

أي أنني شهر أنام فيه وأنا هانئ البال وشهر آخر لا تفارقني الكوابيس المخيفة والمزعجة واسوأها كان وجه أبي وهو يصرخ في وجهي قائلًا إنني قابيل القاتل وتظهر من خلفه عيون الحاضرين وهم ينظرون بشماتة لا مثيل لها، أو ان أرى وجوه أصدقاء أخي يلتفون حولي ويصرخون: قابيل المجرم، قابيل قاتل أخيه، ثم يضرمون النار في جسدي لأستيقظ ملهوفًا مرعوبًا ومحمومًا..

لم أستطع أن أنسى وعدي أو أن أتجاوز الفيلم الذي صوَّرته عيناي ذلك اليوم المخيف، وبعد عشرين عامًا من الحادثة وصلني صندوق متوسط الحجم إلى مقر عملي، فتحته لأجد فيه رسالة مطبوعة تقول: تفاصيل مقتل حيان..

شعرت بالتميل في عقلي وأطرافي، واضطررت إلى تناول جرعة مخفِّفة من المهدئات كي أستطيع استيعاب ما وجدته داخل الصندوق..

كان بداخله الكثير من الوثائق مثل ضبط الشرطة وتقرير الطبيب الشرعي وصور من تلك الليلة وذاكرة صغيرة استمعت لما بداخلها من تسجيلات على الفور ففهمت أن ما جرى في تلك الليلة كان مدبرًا، وحيان لم يمت بجرعة زائدة بل قُتل فيها، وعلمت أيضًا أن الوقت قد حان للعودة والانتقام، لكن ليس قبل أن أتحرَّى عن كل التفاصيل وكيفية قيامهم بالجريمة والتستر عليها ومعرفة المشتركين بها، وليحين الوقت لأتخلص من كوابيسي وإدماني بالانتقام من هؤلاء الفاشلين الحاقدين الذين دمروا حياتي وعائلتي.. وعندما تأكدت أن عمي الذي هدَّدني بالقتل إذا عدت إلى البلدة قد توفي أيضًا لم تعد لدي حجة لتأخير انتقامي..

***

-٣-

– طبيب المجانين... هذا اللقب الجديد الذي حصلت عليه أنا الدكتور غسان في أول جلسة لي مع أصدقاء أخي القدامى، أو زملائي أيام المدرسة حين دعوتهم لما أسميته لقاء لمّ شمل بعد الغربة، وهم بدورهم تناوبوا على الضحك وإلقاء النِكات السمجة التي تعكس مدى سطحية مفهومهم للطب النفسي وللحياة بالمنظور العام، على الرغم من أن الكثير من الحاضرين محصِّلتهم العلمية ليست بالقليلة؛ فالأول كان سلطان وهو مهندس معماري، والثاني ماجد مهندس مدني، وقد شكَّل الاثنان بعد تخرجهما قوة لا يستهان بها باتحادهم لتأسيس شركة عقارات أصبحت من الشركات الرائجة في عالم البناء والاستثمار.. ثم أضيفَ إليهما الأستاذ

حميد الذي درس العلوم الحيوية وأصبح دكتورًا في الجامعة الدولية ومدير أكبر مدرسة ثانوية في المدينة ذاتها.. أمّا بالنسبة لعمار، فقد دخل سلك الأمن ويدّعي أنه مجرد مسؤول أمني في المطار، لكن الجميع كان يعلم أن له يدًا طائلة داخل السلك على أنه عميل خاص متخفٍ.. وأسامة كان على نقيض عمار تمامًا، بل إنك تستشف من نظراتهما خلال الجلسة أنهما لا يضمران الخير لبعضهما، وذلك لأن أسامة أصبح مسؤولًا سياسيًا عن طريق عائلته التي حجزت له كرسيًا داخل الوزارة التي كان والده على مقربة خطوة واحدة من تنصيبه كوزير لها، لكن الخطة لم تسر بالاتجاه الصحيح لاتهامه بالفساد وتلوّث يديه بالمال القذر، لذا اعتمد أسامة على والده ومعارفه وسلطته ونفوذه لوضع خطة للمستقبل وتحقيق ما عجز والده عن فعله، أمّا بالنسبة لعمار فيرى أن هذا الغصن من هذه الشجرة وهذه الشجرة فاسدة لا خير فيها، وبالتالي نظرات الكره التي كان يرمقه بها أصبحت مفهومة، والتربص به ومراقبته بصمت وعن كثب للانقضاض عليه في حال، وقد أبدى تصرفًا بسيطًا يدل على فساده قبل الوصول إلى كرسي السلطة..

بقي عليّ التعريف بوائل، الشاب البسيط الذي لم يرَ أن له مكانًا في مقاعد الدراسة بعد رسوبه في الثانوية العامة، ولجأ إلى مهنة النجارة في دكان والده القديم في الأحياء الشعبية للمنطقة، وعلى الرغم من بساطة حياته وضعف قدراته المادية إلا أنه استطاع تكوين عائلة بعد أن ورث دكان والده ومنزلهم القابع في ذات الحي البسيط.. صحيح أن وائل كان أضعف الموجودين دراسيًا وماديًا، لكنه كان أكثرهم تفهمًا واحترامًا لذاته البشرية التي يعكسها بمفرداته البسيطة المعتمدة على الكثير من الإيمان

والروحانيات.. ومن هذه الجلسة التي عُقدت في بادئ الأمر على أنها لمّ شمل للأصدقاء بعد أن فرّقتهم سبل الحياة، بدأت خطتي في التسلل إلى أفكارهم وحياتهم لأدرس بدقة الطريقة الأشد ألمًا للانتقام..

***

@ART_OF_BOOK

-٤-

غسان: قل لي يا سلطان، كيف دارت بك الأيام وأصبحت حالك على ما أنت عليه؟

المهندس سلطان: سؤال صعب على الرغم من توفر إجابته لحضور شريكي العظيم ماجد..

المهندس ماجد: الموضوع بكل بساطة أن سلطان جاءني بمشروع أقبل على دراسته عدة سنوات وكان ينقصه المال، فمددته به وأعجبتني الفكرة بعد النجاح الذي حقّقه المشروع وانطلاقًا منه أقمنا شركة استثمار عقاري ساهمت أنا بالأموال وماجد بالعمل والأفكار..

م.سلطان: اختصاصي هو العمارة، واختصاص ماجد هندسة مدنية، وبالتالي المشروع كان متكاملًا، وها نحن الآن قد حققنا اسمًا لامعًا في السوق وفي ذات الوقت ثروة لا بأس بها..

غسان: جميل جدًا، هذا النوع من الشراكة هو الأذكى عبر التاريخ، شراكة التكامل، أي كل شخص يقدم ما ينقص الشخص الآخر..

ارتبك الحاضرون ودارت أعينهم في تلك اللحظة لهذه الجملة التي أطلقتها، على الرغم من أنها تصِف حالة العمل بين المهندسيْن لكن على ما يبدو أنها أخذت على محملٍ شخصي، فمن الواضح أنها شراكة استغلال لا أكثر، لذا قررت تغيير الموضوع والانتقال لفهم بعض التفاصيل عن حياتهم الشخصية، ومنها أفهم التطورات التي حصلت في غيابي..

غسان: ماذا عن العائلة يا سلطان هل تزوجت وأصبح لك أطفال؟

احمرّ وجه سلطان أكثر وبدا بحكِّ أنفه بطريقة هياج مما يدل على توتره، وعدل من جلسته، وأطبق كفيه ليعتصرهما بقوة، وهذا دليل غضب واستهجان، وكل هذه التصرفات لا تخفى عليّ أنا الدكتور غسان، الخبير النفسي، وفنان في قراءة لغة الجسد والتشخيص..

م.سلطان: في الحقيقة لم أفكر في الموضوع أبدًا، أفضِّل العيش وحيدًا لأستمتع بالحياة دون أيّ منغصات، خاصة أنه لا ينقصني شيء وأمتلك أسطولًا من السيارات والشاليهات الفارهة، وبالتالي لا أريد أن أفوّت متعة الحياة مع شخص واحد، بل أفضل التغيير كل يوم لأتنعم بكل الأموال التي أمتلكها بالطريقة المثالية وأصرفها بصخب على حياتي المترفة..

كل هذا قاله سلطان بنبرة متعالية وهو يحاول جهده ألا يتواصل بالعينين مع أحد الحاضرين.. وهو دليل على الهرب والكذب..

م.ماجد بخبالة: تستطيع القول إن سلطان هو شخص لعوب مع النساء، وما زال من أصحاب الكيف، وهو أكثر من فهم هذه الحياة بطريقة صحيحة ويستغلها خير استغلال..

ضحك الجميع ضحكة صفراء قرأتها بسهولة. قاطع هذه الضحكة رجل الأمن عمار قائلًا بحزم:

عمار: من الأفضل لك يا سلطان ألا تتحدث عن مثل هذه الأشياء في العلن لأن للحيطان آذانًا، ونحن في السلك الأمني نتلهف لأمثالك للوقوع بين أيدينا..

م.سلطان: على رسلك يا عمار، كل ما أفعله هو ضمن القانون، القانون هو حياتي.

عمار: قانوني ممكن، لكنه غير أخلاقي.

م.سلطان: غير أخلاقي مصطلح مطاط وكل فرد يقيسه حسب منظوره للحياة، أمّا الأهم بالنسبة لي هو أنه قانوني، لذا من فضلك ارحمنا من أخلاقيات مهنتك الخفية..

في هذه اللحظة كان أسامة المسؤول السياسي يرقُب الحدث بصمت، وعلم أن مثل هذا التعليق يجب ألا يمر بسلام، وأردف تعليقًا موافقًا لسلطان..

أسامة: يجب أن تعترف يا عمار أن القانون فيه الكثير من الثغرات،

ومنها لا أخلاقية كما تراها أنت، ولا يحاسب عليها القانون، لذا، علينا أن نعيد صياغة القانون لتلافي حصول مثل هذه الثغرات التي يتم استغلالها من قِبل الأشخاص الأذكياء، أمثال صديقنا سلطان..

عمار: تقصد أنه في حال تم ترشيحك للوزارة سيكون شعارك «محاربة الفساد الأخلاقي»، وسوف تقوم بملاحقة الفاسدين والمرتشين وأصحاب الأموال القذرة؟!

أسامة: بالطبع، هذا هو شعاري وشعار والدي من قبلي كما تعلم..

كم تمنّى عمار أن يقول له: بالطبع هذه هي شعاراتكم الرنانة للضحك على عقول الناس، للوصول إلى السلطة المطلقة، بعد أن امتلأتم أنت ووالدك بالأموال القذرة، وتجارة المخدرات الفاسدة، ومنظومة الفساد التي خلفها لك والدك، لكنه اكتفى بإظهار ابتسامة المحقِق الخبيثة مع حركة اليد أمام الوجه التي من شأنها أن ترسل رسالة واضحة لكل الحاضرين أنه لم يصدِّقه وأنه مكشوف للجميع..

راقبت بهدوء هذه المسرحية الهزلية، كيف أن كل شخص يحاول انتهاز الفرصة ليُعقِّب على حياة الآخر.. وفي هذه الأثناء قرّر الأستاذ حميد بكل حكمة التدخل، لأن الجلسة بدأت تأخذ مسارًا أكثر تعقيدًا..

الأستاذ حميد: وكما ترى يا غسان، فالجميع أصبحت لديه مسؤوليات ضخمة تقع على عاتقه في بناء المجتمع، وكلٌ لديه آراؤه الشخصية واتجاهاته المختلفة عن الآخر، لكن ماذا عنك يا غسان؟ فكما فهمنا أنك بقيت عازبًا طوال هذه العشرين سنة، ألم يعجبك أحد من كل نساء ألمانيا

الفاتنات؟! ما خطتك الآن، الزواج والاستقرار في منزل عائلتك القديم بعد أن أصبحت عيادتك جاهزة؟

لم أستغرب من هكذا سؤال وكنت مستعدًا للجواب، مع أنني تذكرت قصة عشقي مع ميرا، صديقتي الألمانية الفاتنة في سنوات الجامعة التي اختفت دون سابق إنذار عند تخرجنا، مما سبَّب لي اكتئابًا حادًا، لكنني استطعت معالجة نفسي بالعقاقير الخبيثة التي كنت خبيرًا بها وبقيت مواظبًا على القليل منها عند كل انتكاسة..

غسان: ليست هناك خطة واضحة بخصوص الارتباط في الحقيقة، لكن هدفي الأول هو التوسُّع في العيادة لجعلها المركز التخصصي الأول للطب النفسي لكل أبناء البلد. أمّا بخصوص منزل العائلة، فهو معروض للبيع لأنه كما تعلم مثل هكذا مشروع بحاجة إلى مبلغ جيد..

م.ماجد: تستطيع الاعتماد علينا أنا وسلطان في هذا الموضوع، وسوف تكون راضيًا عن النتائج.

هزّ سلطان رأسه بفخر موافقًا على ما قاله شريكه..

اعتذر المهندسان عن إكمال الجلسة لأن عليهما المغادرة لحضور اجتماع هام في الشركة، وكذلك الأمر بالنسبة لأسامة وعمار والأستاذ حميد، بقي في الجلسة وائل فقط، الذي منذ بداية هذا الاجتماع لم ينبث بحرف، فهو يضع يده على فمه وينصت بحذر وهو يشرب شايه الثقيل المخلوط بالكثير من السكر والنعناع الطازج..

وائل: من الجيد أنك طرحت مثل هذه الأسئلة المربِكة على الجميع، فبهذا ضمنت عدم اجتماعهم مرة أخرى إلى الأبد..

غسان: هكذا إذن! لم أعلم أن الأمور آلت إلى هذه الدرجة بين الأصدقاء الذين كانوا يدًا واحدة في السابق..

وائل: يدًا واحدة!

قالها وائل بسخرية ثم أردف بنبرة تحدٍ: اسمعني جيدًا يا قابيل..

اتّسعت عيناي من الصدمة ووضعت يدي على الكرسي وكأني أستعد للقتال؛ لأن منذ عشرين عامًا لم أسمع أحدًا يناديني بهذا اللقب.. وأكمل: هل كنت تعتقد أن بعد كل هذه السنوات التي مضت سوف ينسى أحدنا تلك الليلة؟ هل كنت تعتقد أن أحدًا سوف يثق بك بعدما فعلوا ما فعلوه بك؟

لا أعتقد أنك بمثل هذه السذاجة، إن جميع الذين لبّوا دعوتك المشبوهة هذه جاءوا ليس محبةً بك أو شوقًا إليك، بل فضولًا وغرورًا، لأنهم لم يصدقوا أن قابيل قد عاد إلى البلدة وطلب لقاءهم على الرغم من الأذى الذي ألحقوه به وبعائلته..

غسان: لماذا أنت مُصرٌّ على مناداتي بهذا الاسم؟

وائل: لأن هذا هو اسمك الذي تداولناه في العشرين سنة الماضية، وكل الناس تعلم حكايتك وقصتك، يا رجل أنت أسطورة مخيفة ومرعبة ومضرب مثل لكل أبناء البلد..

ارتبكت كثيرًا، بدأ العرق يتصبب من جبيني، تسارعت أنفاسي، قلت: هل تعتقد أن عودتي كانت غلطة؟

وائل: لا أعلم، لكن ما أراه أنك عازم على الغوص في الآلام والأوجاع،

ونبش ماضٍ قد عفا عليه الدهر، وكل هذا سوف ينعكس عليك وحدك، لأنه كما رأيت كل شخص أصبحت له حياته، مع أنني لا أنكر أن السنة الأولى بعد الحادثة كانت صعبة على الجميع، لكنهم استطاعوا المُضي قُدمًا..

غسان: ما الذي حدث في تلك الليلة يا وائل؟ ليلة وفاة أخي؟

تأتأ وائل كثيرًا وبدأ ينظر إلى الأعلى وإلى اليسار وهذه إشارة واضحة أن وائل سوف يكذب ويختلق قصةً ما بعقله ليرويها..

وائل: صدقني يا قابيل، ما من جدوى لنبش تفاصيل تلك الليلة السوداء، ما حدث قد حدث..

غسان: خصّها لي إذا كانت قد تبقت لديك كرامة لأخي المقتول.

شهق وائل وجحظت عيناه عندما سمع هذه الكلمة، وليتفادى الاتهام المباشر، قرر الإفصاح بالقليل ليبعد الشبهات عن نفسه..

وائل: كنا صغارًا يافعين وكانت السهرة صاخبة، فالجميع كان منتشيًا بطريقةٍ أو بأخرى، يرقصون ويهلّلون، وفي لحظة ما بدأ حيان بالتخبط على الأرض حتى سال الزبد من فمه، وأنا لا أنكر أن الجميع ارتعب حينها واتصلنا على الإسعاف متأخرين قليلًا، لكننا كنا صغارًا ولم نعلم ما الذي يتوجب علينا القيام به..

غسان: كم كانت الساعة عندما بدأ حيان بالتخبط؟

وائل: لا أتذكر لكن أعتقد أنها حوالي الواحدة ليلًا.. اعفني من هذه التحقيقات التي لن توصلك إلى شيء مفيد ودعني أذهب بسلام..

غسان: سؤال أخير فقط واذهب بعدها كيفما تريد..

اومأ برأسه موافقًا، مع تنهيدة أظهرت أنه قد سئم الحديث..

غسان: من الأنثى التي كانت في حياة حيان ويبدأ اسمها بحرف الصاد؟ وما قصتها؟

ارتعب وائل من السؤال وزمَّ شفتاه غضبًا وبدأ ينقر على الطاولة بشكل متسارع واخذ وقتًا قبل أن يبدأ بالحديث..

وائل: إنها.. إنها أصل البلاء كحال كل أنثى في الحياة.. والآن دعني اذهب فلديَّ الكثير من العمل لأنجزه..

انصرف وائل على الفور وتركني في حيرة وأنا أقلِّب أفكاري محاولًا فهم ما حدث اليوم، لكن خطتي قد نجحت على ما يبدو، وهي زرع الشك والخوف والفضول في رؤوسهم قبل مغادرتهم لكي أرى تخبطهم وأراقب طريقة تعاملهم مع الموضوع عن قرب..

***

-٥-

غادر وائل مذعورًا بعد وصفي لأخي حيان على أنه مقتول، وفي ذات الوقت جاءته إحدى النوبات التي لطالما رافقته طوال هذه السنوات، بل وبُنيت حياته عليها على ما يبدو، وهي نوبات من عقدة الشعور بالذنب التي تكوَّنت له بعد تلك الليلة عندما رأى صديقه المقرَّب حيان يفارق الحياة أمام عينيه، ثم الوقوف أمام والديه والنظر في أعينهم والتشويش على ما حدث لإبعاد الشبهات عن نفسه وعن أصدقائه بفبركة التفصيل الأكثر أهمية، على أنني كنت المحرِّض والمموِّل لتلك الحادثة، لكن المهندسين سلطان وماجد كانا له بالمرصاد، فقد كانا بانتظاره في الخارج، كي يفهما ما إذا كان وائل قد تفلَّت منه الكلام إثر إحدى نوباته ولحظات ضعفه التي هو مشهور بها..

م.سلطان: اركب السيارة يا وائل..

وائل: دعني وشأني أنت وصديقك الخبيث.. أنا أكرهكما وأتمنى الا أرى وجوهكما مرة أخرى.. ومشى وائل مبتعدًا عن السيارة..

اقترب ماجد بالسيارة من وائل وقال له:

– اركب السيارة يا وائل ولا داعي لهذه المواقف المحرجة أمام الناس، نريد أن نتناقش معك فيما حدث فقط ويذهب كل منا إلى حال سبيله بعدها..

اقتنع وائل على مضض وركب معهما ومشوا بعد أن أغلقت النوافذ وأقفلت الأبواب.

م.سلطان: ما الموضوع المشترك بينك وبين قابيل الذي يتطلب منك أن تبقى وحيدًا معه ولم تغادر معنا؟

وكز ماجد سلطان بإشارة منه لتهدئة الأمور..

وائل: لم أفهم إشاراتكما التي تفيد بأنه يتوجب عليّ المغادرة معكما في نفس التوقيت، ثم اعتقدت أني إذا بقيت مع قابيل وحيدًا أستطيع أن أقرأ نواياه..

ضحك سلطان بسخرية وقال:

– غباؤك فطري يا وائل، هل كنت تعتقد أنك سوف تستطيع أن تقرأ قابيل الطبيب النفسي المختص في الخارج خبير لغة الجسد وقراءة الناس؟!

م.ماجد: هل هذا فعلًا ما كنت تحاول فعله يا وائل، أم أن هناك غايات أخرى؟

وائل: بالطبع أنا غبي لأنني وافقت على المخطط الخبيث الذي وضعتموه في تلك الليلة وأجبرتماني على أن أكون جزءًا منه فيما بعد..

م.سلطان: الآن صحا ضميرك أيها البطل، بعد عشرين عامًا؟

وائل: نعم، الضمير، الكلمة التي لا يفهمها أمثالك من حثالة الأرض، محدثي النعمة..

صرَّ سلطان على أسنانه من الغضب وأخرج سيجارًا من جيب بدلته الفارهة وأشعله وهو يحاول أن يكتم غضبه..

م.ماجد: دعكما من هذا الهراء الآن، وقل لنا ما الذي فهمته من هذه الجلسة؟ وهل قال لك شيئًا مهمًا في النهاية؟

وائل: من الممكن أن تكون هذه فعلًا جلسة للمّ الشمل من وجهة نظر قابيل، لأنه عاد ووجد أنه بلا عائلة فحاول التواصل معنا على أمل أننا ما زلنا أصدقاء، وفي ذات الوقت ما زالت لديه بعض التساؤلات عن تلك الليلة، وهذا من حقه؛ فالأجوبة التي قدمناها لم تكن مُرضية وحادثة وفاة والدته وغضب والده هو الذي أنقذ الموقف آنذاك..

م.ماجد: كلامك معقول بخصوص التساؤلات، لكن لم يكن قابيل صديقًا لنا مع أننا كنا في نفس مقعد الدراسة، لأنه كان يحتقرنا ويعتبرنا من الفاشلين.

التفت سلطان على وائل وقال له: وهل أجبته أنت عن تساؤلاته؟

وائل: نعم، قلت له ذات القصة التي رويناها للجميع دون أي زيادة أو نقصان، وتقبّلها لأنني حاولت أن أكون مقنعًا في أدائي.. والآن أشعر أني اكتفيت من تحقيقاتكما المبالغ فيها، دعاني أذهب في حال سبيلي..

م.ماجد: أرجو أن تتواصل معنا في حال سمعت أي شيء عن هذا الموضوع يا وائل، فأنت بالتأكيد مدرك لخطورة الوضع في حال تسرَّب جزء من الحقيقة..

م.سلطان: هل أنت متأكد أنك لا تريد إضافة شيء على ما قلته لنا يا وائل؟ أنا أعلم أنك لا تتمالك نفسك في بعض المواقف.

مشى وائل مبتعدًا عن السيارة خطوتين ثم عاد مسرعًا وقال لهما:

ـ أعتقد أن قابيل يعلم بأمر صوفيا..

وابتسم بخبث بعد أن تركهما يحدِّقان برعب في بعضهما البعض.

***

-٦-

ـ كل هذا الحوار كنت قد سمعته لأنني نجحت بوضع جهاز تنصُّت صغير على كتف وائل عندما أقبل على المغادرة وبادرته بعناق ادَّعيت به أنني أريد أن أشتمَّ فيه رائحة أخي لأنه كان أقرب الأصدقاء إليه، فطبطبت على كتفه وغرست دبوس التنصت شاكرًا إياه على مدى صراحته وصدقه معي..

اعتبرت حينها أن هذه الخطة كانت كفيلة بأن أعرف ما حدث في تلك الليلة، وهي اختراق هذه المجموعة عن طريق الحلقة التي لطالما كانت الأضعف بينهم، وهي وائل البسيط الذي كان على الدوام يشكو من الإفراط في عقدة الذنب ويأتي للاعتراف لي بالذنوب التي كانوا يرتكبونها

او كان يدّعي انهم كانوا يرغمونه على اركابها، لأنه كان فقيرًا وضعيفًا، لكن محاولتي هذه لم تؤتِ ثمارها كما توقعت، على الرغم من التأكد من بعض شكوكي تجاه المشاركين في هذه الجريمة، بقي عليَّ التأكد من كيفية مشاركة الآخرين، لأني أصبحت أعلم أن الخطة كانت بموافقة الجميع وهناك شيء ما يتفق الجميع على إخفائه عن أحداث تلك الليلة، لكن رأس الخيط بالنسبة للمهندسين كان قد كُشف، وهي صوفيا..

وأصبح من السهل الآن البدء بالمرحلة الثانية من الخطة بعيدة المدى التي رسمتها بحذر ووضعت فيها كل خبراتي في تحليل الشخصيات التي شاركت في الجريمة.

***

-٧-

لم يستطع الأستاذ حميد النوم طوال الأسبوع بعد تلك الجلسة التي حرّكت حِس المسؤولية لديه، بل بقي شارد الذهن مشغول البال؛ لأنه لم يتخيل يومًا عودة قابيل، ولم يتجهّز لهذا الموقف الذي وُضع فيه وهو معروف عنه التفكير بالاستباقية والعبقرية في إدارة الأزمات، ليس ذلك وحسب، بل ما زاد اضطرابه هو وصول كتاب من الوزارة على أن المدرسة سوف تستقبل طبيبًا نفسيًا ليقيّم حالة الطلاب النفسية ويدرس مشاكل المراهقين المقبلين على الامتحانات النهائية وإيجاد الحلول المناسبة لها، لذا شعر الأستاذ حميد بالإهانة من هذا القرار، وكأنه لم يبذل الجهد الكافي لتوفير البيئة المناسبة للطلاب في المدرسة، ليشعروا بالأمان.. وفي آخر يوم

من هذا الأسبوع المرهق، طُرق باب مكتبه وتقدمت المساعِدة لتقول له إن الطبيب قد وصل، وأشار لها بيده كي تُدخله بإحباط وعدم رضا..

– صباح الخير أستاذ حميد، أتمنى ألا أكون قد تأخرت على الموعد؟

وقف الأستاذ حميد بصدمة باتت ظاهرة على وجهه الذي لا يكاد ينفض من العرق المفاجئ.. وقال بدهشة:

– قابيل! ماذا تفعل هنا؟

وبعد ثوانٍ قليلة تدارك الموقف واقترب منه وقال له:

– أعتذر منك يا غسان، أهلًا وسهلًا بك أيها الصديق القديم، تفضَّل بالجلوس، اعذرني على ردة فعلي، لكنني تفاجأت كثيرًا ولم أكن أتوقع قدومك أبدًا..

ثم قال في قرارة نفسه: هذه المرة الثانية التي يغلبني فيها قابيل بقيامه بحركة غير متوقعة، وأثبت فشلي في موضوع الاستباقية وتدارك الأمور..

غسان: لا عليك أستاذ حميد، لو كنت أعلم أنك مدير أكبر ثانوية في البلدة لكنت تواصلت معك شخصيًا وتهيأنا للعمل سويًا.

حميد: لا عليك، يبدو أن القدر مصمِّم على أن يجمعنا بطريقة أو بأخرى.. والآن، من أين تريد أن تبدأ؟

غسان: هذه ورقة مسجَّل عليها بعض الترتيبات التي تسهِّل العمل..

استدعى حميد مساعدته بعد أن اطَّلع على ما هو موجود في الورقة بعدم اهتمام وطلب منها تنفيذ المطلوب في الورقة بحذافيره وانصرفت..

انتبه غسان لاضطراب حميد من السواد الذي حول عينيه، وفي ذات الوقت لم تتوقف يده اليسرى عن الارتعاش مما يؤكد القلق والتعب وعدم

التوازن، فقرَّر أنه الوقت الأمثل لممارسة بعض ألاعيبه النفسية..

غسان: لدينا حوالي عشر دقائق قبل التحضيرات التي طلبتها، قل لي وبصراحة يا حميد، ما أكثر سؤال مقلق يدور في بالك الآن؟

حميد: لا شيء على الإطلاق، جدولي مليء بالاجتماعات المهمة التي عليَّ التجهيز لها قبل الامتحانات النهائية للطلاب.

غسان: لن ينفعك التهرُّب يا حميد.. التعب يظهر عليك بشكل واضح، من الأفضل أن تتخلى عن القليل من المهام للآخرين، وإلا فمشاكل القلب سوف تبدأ بالظهور قريبًا نتيجة الضغط النفسي الذي تجهد نفسك به، وكفاك إفراطًا بالعطاء، يبدو أنك فعلًا مصاب بعقدة المسؤولية..

حميد: ما الذي تحاول الوصول إليه يا قابيل؟

غسان: أحسنت، هذا ما أنتظره منك، أن تكون واقعيًا كما أعرفك وتواجه مشاكلك دون خوف أو تردد.. أريدك أن تقول لي لمَ أنت خائف ومضطرب؟ هل هنالك شيء ما يقلق راحتك النفسية هذه الأيام؟

حميد: أنا لست خائفًا من شيء، وليست لدي أي مشاكل نفسية كانت أو جسدية، لكن يبدو أنك لا تستوعب حجم المسؤولية التي تقع على عاتقي كمدير، ففي مدرستي هذه ألف ومئتا طالب، والحفاظ على أمنهم وسلامة عقولهم من أن ينحرفوا عن الطريق الصحيح ليس بالأمر السهل، خاصةً بعد أن أصبحت الرذيلة في كل مكان والحصول على المخدرات والكحول والسجائر أسهل من الحصول على قارورة ماء من المحلات، وانتشار الإباحية والجهل بسبب ضوابط المجتمع الصارمة التي

تمنع التوعية الجنسية للمراهقين مما يجعلها تلقَّن في الشوارع، ومن الأفلام الإباحية والمسلسلات الخليعة، وأضف إلى ذلك انني أخرّج ربع هذا الرقم كل عام من مدرستي ليواجهوا الحياة التي تفرِض عليهم أن يكونوا واعين ومدركين لكل هذه الفوضى، لأنهم هم بُناة المستقبل وعليهم تُوضع الرهانات.

غسان: أفهم من كلامك أنك تعوّض الخطأ الذي ارتكبته وأنت في سنهم عندما كنت خبيرًا في هذه الأشياء التي ذكرتها! لا شك لدي انهم في أيدٍ امينة لأن خبرتك لم تقتصر على كل تلك السلوكيات الفوضوية فحسب، فمشاركتك في قتل أخي تعطيك الكثير من الخبرة وحُسن التصرُّف مما يُبقي سِجلهم الجنائي نظيفًا أيضًا.

ازرقَّ وجه حميد في تلك اللحظة وأصبح يلتقط أنفاسه بصعوبة بالغة مع عجز لسانه على النطق نتيجة ارتسام ضحكة مستفزة على وجه غسان، لكن جاءت مقاطعة المساعِدة في الوقت الحاسم قبل اختناقه، لتقول لهم إنها اختارت من كل صف طالبين وجمعتهم في صالة الطعام، مع وضع ثلاثة أوعية شفافة أمامهم على الطاولة، وأقلام وأوراق ملوّنة وهم الآن بانتظار الدكتور غسان.

استأذن غسان بأناقة من حميد وقال له: لنا لقاءات أخرى بالتأكيد أيها الصديق القديم، بادَله حميد ابتسامة كاذبة وهو يقول:

– حظًا موفقًا دكتور غسان..

***

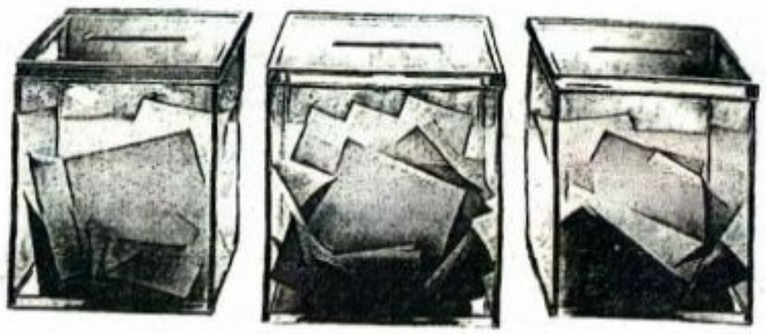

-٨-

– تحياتي لكم أيها الأصدقاء الأعزاء.. اسمي الدكتور إكس.. نجتمع اليوم في هذه القاعة للقيام باستطلاع للرأي لتحسين جودة المدرسة، وطريقة التعليم، والأسلوب المتّبع للحفاظ على أمن العقول، وبالتالي فإن اختياركم للمشاركة معنا يضعكم في موضع المسؤولية، ليس فقط تجاه أصدقائكم في مدرستكم والمدارس الأخرى بل لأجيال وأجيال قادمة.. سوف نلعب لعبة يطلق عليها الجرأة.. المسؤولية.. التغيير.. أمامكم ثلاثة أوعية كبيرة شفافة اللون، وبجانبها عددٌ من الأوراق والأقلام الملونة بالألوان الأساسية.. شروط اللعبة أن تختار لونك المفضل من الأوراق، وتحدِّد ما يتناسب معها من لون للقلم للكتابة به، ثم الإجابة عن السؤال الأول، وثني الورقة ووضعها في الوعاء الأول أمام الجميع، ونستمر بنفس

الخطوات عند الإجابة على الثلاث أسئلة التي سأقوم بطرحها لنملأ الأوعية الثلاثة على الترتيب.. ولتكونوا مطمئنين، فإن أسماءكم ليست مطلوبة ولن يعلم أحد بإجاباتكم هذه لاختلاط أوراقكم مع بعضها، وإذا أردتم اختيار حرف أو لقب يشير إليكم للتوقيع به على ورقتكم فلا بأس بذلك.. لكن تذكّروا جيدًا اسم هذه اللعبة، الجرأة.. المسؤولية.. التغيير..

السؤال الأول في اللعبة يقول:

استيقظ الشاب زد من النوم، واكتشف أن قوة خارقة قد تولّدت لديه، وهي القدرة على مسح الذكريات، وقرّر أن يبدأ بمسح أكثر ذكرى مؤلمة لديه، وهي ذكرى وفاة والدته، لأنها تركت في روحه الكثير من الندبات والأوجاع التي لم يستطع التعايش معها بعد أن بقي وحيدًا..

الآن، أنت الشاب زد ولديك القدرة على محو ذكرى واحدة من ذكرياتك.. ما هي، ولماذا؟

لديكم عشر دقائق للجواب على هذا السؤال أيها الأصدقاء.. بدأ الوقت..

جلس الدكتور غسان يراقب نظرات ٤٠ طالبًا وهم ينقلون نظرهم بين الأوراق ليختاروا منها ما يتناسب مع شخصياتهم، ثم القلم الذي سوف يكتبون به، وبدأوا بالإجابة.. كانت مساعدة المدير تقف بجانب الدكتور غسان، وهي لا تكاد تفهم شيئًا من هذه اللعبة، وبدأت تطرح أسئلتها بفضول..

عذرًا دكتور، سامحني على فضولي، لكن لماذا أطلقت على نفسك اسم الدكتور إكس؟

ابتسم غسان وأجابها هامسًا:

– لكي أزيل حاجز الرسمية بطريقة سريعة، وأدخلهم في جوٍ من الفضول والحماس.. ثم إن الانطباع الأول هو الأهم في مثل هذه الدراسات، وبمثل هذه التصرفات البسيطة يتغير مفهومهم عن سبب اختيارهم من بين أصدقائهم من تحقيق وخوف إلى متعة وفضول، والأهم من ذلك هو التفضيل.. سوف يشعرون أنهم مفضّلون وأذكى من غيرهم، ولذلك تم اختيارهم لمثل هذا العمل النبيل على الرغم من اختيارهم بشكل عشوائي..

المساعدة: تقصد أنك توهمهم بأشياء لكي تصل إلى غايتك! أليس هذا استغلالًا؟

غسان: مئة في المئة شكل الكلمة يوحي بهذا، لكن الاستغلال نوعان؛ استغلال يمتص طاقتك وأفكارك الإيجابية لاستعمالها ضدك ويحوّلها إلى أفكار وطاقة سلبية تنعكس عليك.. والثاني، هو الذي يمتص الطاقة والمشاعر والأفكار السلبية ليضيف عليها الأفكار والمشاعر الإيجابية ويضع لها قالبًا جديدًا فتتحول من سلبية إلى إيجابية، وهذا هو تمامًا ما نسعى إليه الآن في اجتماعنا هذا.. أستطيع أن أعطيك مئات الأمثلة عما سمّيتِهِ بالاستغلال تقومين به أثناء يومك مع أطفالك أو أصدقائك أو عائلتك والمقربين لديك.. لكن لا أستطيع أن أعلم إن كنتِ من النوع الأول أم الثاني.. وابتسم بخبث في وجهها..

انتهت العشر دقائق فطرق الدكتور إكس الجرس لينبّه الجميع بأن الوقت انتهى وحان وقت طرح السؤال الثاني، وبالتالي قام الطلاب الأربعون بثني أوراقهم ووضعها في الوعاء الأول الموضوع على الطاولة أمام الجميع، وجلسوا ينتظرون بفضول طرح السؤال الذي يليه..

السؤال الثاني يقول: إنه ذات الشاب «زد»، شعر بالاستياء بعد سنة من قراره بحذف هذه الذكرى، لأنه فقد معها الكثير من المشاعر والذكريات المرتبطة بها، ومنها كان جميلًا ومفرحًا ومنها كان بشعًا ومحبطًا، وبالتالي أصبح يبحث عن منفذ للهرب من شعوره بالحنين الذي بات يؤلمه كل ليلة.

الآن تذكّر ماذا كتبت، وتخيّل أنه أصابك ما أصاب الشاب «زد» بعد سنة من قرارك بمحو تلك الذكرى التي كتبتها.. ماذا تتوقع أن تشعر؟ وما شكل مهربك لتذكّر ما أقبلت على محوه قبل سنة؟

لديكم الآن ربع ساعة للإجابة.. بدأ الوقت..

وضعت المساعدة كرسي بجانب غسان وقالت:

– هذه المرة الأولى التي أرى اللهفة والرغبة في التفاعل من الطلاب في مثل هكذا تجمع.

غسان: لأن الهدف منه ليس تعليميًا أو تنظيريًا ولا حتى إلقاء العتب أو اللوم على تصرفاتهم، بل إنهم شعروا بالتحفيز وكأنهم للمرة الأولى أحسّوا بأهميتهم في هذا المجمع، وبأن صوتهم سيكون مسموعًا..

المساعدة: ما الهدف من الأوراق والأقلام الملوّنة؟

غسان: الموضوع بسيط للغاية، تقسّم الألوان الأساسية إلى الأحمر الذي يعبر عن الحماس والقوة، ويستخدمه الناس لزيادة الانتباه والتحفيز.. أمّا الأزرق، فيعبر عن الهدوء والثقة، ويستخدمه الشخص الهادئ والمطمئن.. والأصفر يعبّر عن الإيجابية والتفاؤل، ويستخدمه الشخص المتفائل لأنه يعزّز المشاعر الإيجابية، وبالتالي يزيد من النشاط

العقلي.. ويضاف إليهم اللون الأسود، الذي يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالقوة والغموض والأناقة، ويستخدمه الشخص المتحكّم أو الانطوائي ليؤمّن الحماية لذاته.. وبالنسبة للأبيض، هو لا يعتبر لونًا، لكنه يدخل معنا لأنه يرمز إلى النقاء والسلام، ويستخدمه الشخص الفارغ أو البارد داخليًا كما نسميه.. وبهذا أستطيع ترتيب الأشخاص وفهم بمَ يشعرون عند كتابتهم، وما الدافع إلى ذلك عن طريق تصنيف شخصياتهم..

المساعدة: عبقري جدًا!!!

انتهت الربع ساعة وذقّ الجرس مرة ثانية، فقام الجميع بوضع أوراقهم في الوعاء الثاني وعادوا مسرعين إلى مقاعدهم وأعينهم لا تفارق الدكتور إكس، الذي بدوره لم يكن بخيلًا بالابتسامات وإشارات اليد الإيجابية، كرفع إصبع الإبهام للأعلى لبعض الطلبة، الذين بادلوه ذات الابتسامة..

السؤال الثالث يتطلب الجرأة في التفكير والحرية في الاختيار، لذلك سوف تكون المشاركة بالإجابة عليه اختيارية، لذا، من يريد الاستمرار معنا فليبقَ جالسًا في مقعده، ومن يشعر أنه اكتفى ولا يملك هذه الجرأة، فليتفضل للخارج مشكورًا على وقته الذي أمضاه معنا وخبرته التي شاركنا إياها في هذه الحياة..

نظر الطلاب الأربعون إلى بعضهم بترقُّب ليروا من سينسحب من هذا التحدي الذي وضعه لهم الدكتور إكس، فقام ثلاثة طلاب مغادرين القاعة بكل هدوء.. أكمل إكس:

– والآن أصدقائي الأعزاء أشكركم على شجاعتكم التي أبديتموها، والسؤال الثالث يقول: إن الشاب «زد» اختار مهربه عن طريق ممارسة

بعض العادات السيئة، مثل المخدرات والتدخين والإباحية، لكي يؤدّب نفسه على اختياراته الخاطئة، لكن بعد شهرين استيقظ فوجد في رأسه فكرة أنه لم يكن هو السبب في ذلك، بل كانت هناك ضغوطات ما قد مورست عليه من قِبل شخص ما قريب من حياته، ولديه السلطة للتأثير على بعض قرارات حياته، وأحسَّ بقوة خارقة جديدة أصبح يملكها، إنه يستطيع أن يعاقب هذا الشخص، وكان قد اختار ما يتناسب مع ذكرياته ليحقّق الرضا لنفسه وليتعايش مع وضعه الحالي في الحياة..

الآن أنت الشاب «زد» الذي استيقظ بعد شهرين، وجاءت إلى رأسك ذات الفكرة بأن الذنب لم يكن ذنبك وحدك منذ البداية.. على من يقع اللوم، ولماذا؟ وإذا ملكتَ مثل هذه القوة الخارقة التي أتيحت للشاب «زد» لمعاقبة هذا الشخص، ما شكل العقوبة التي سوف تختارها لذلك الشخص الذي أثّر على قرارات حياتك، وجعل من تلك الذكريات بشعة إلى الحد الذي رغبت بحذفها من ذاكرتك ولجأت إلى ما لجأت إليه أثناء هروبك مما عانيته؟

لديكم نصف ساعة للإجابة على هذا السؤال.. بدأ الوقت..

المساعدة: هل انتبهت أن الوعاء الثاني طغى عليه اللون الأصفر، في حين أن الوعاء الأول مختلط الألوان، وهذا يدل مما فهمته منك على الإيجابية والتحفيز اللذين أصابا الطلبة بعد السؤال الأول.. لكن ما الهدف من السؤال الأخير؟ ولماذا خيَّبتهم وخسرت أصوات ثلاثة طلاب؟ كان من الممكن أن تستفيد من إجاباتهم لدعم دراستك هذه أكثر..

غسان: هذه الأصوات الثلاثة هي أصوات ضعيفة ومنعزلة ولم تكتب الحقيقة منذ البداية، وهم الأشخاص الوحيدون الذي شعروا بعدم الأمان

في هذه الجلسة، وحضروها لأنهم شعروا أنهم ملزمين بذلك، لهذا عندما سنحت لهم الفرصة بالهروب هربوا دون تردد، ويوجد الكثير منهم في حياتنا، لذلك علينا ألا نوصد الأبواب خلفنا بالأقفال، بل نترك قسمًا منها مفتوحًا لأولئك المترددين الخائبين، لكي يخرجوا من حياتنا بأقرب فرصة قبل أن تتعلق بهم حد الموت، لأنه في تلك اللحظة سوف نغلق الأبواب ونوصدها عليهم بالأقفال خوفًا من أن يهربوا، وبالتالي يصبح كالسجن بالنسبة لهم وتتحوّل حياتنا إلى جحيم معهم.. باختصار، أقول لك: إن مثل هذه الأصوات هي سلبية وتصنف بأنها مدمرة للدراسة والبحث الذي نحن بصدده، وكان من الأفضل عزلها عن البقية كي لا تنتقل هذه السلبية للجميع، لأنها كالعفونة التي تظهر على طرف الثمرة وتتمدد لتصيب الثمرة كلها بالعفن القاتل، بل وتنتشر لتصيب ثمارًا أخرى لتصل إلى الشجرة الأم وتنخر بها حتى الجذور، لذا استئصالها هو الحل المثالي للحفاظ على ما تبقى من الثمرة والثمار الأخرى وحتى على الشجرة كلها من الخراب، وتسمى هذه الظاهرة بحُمَّى الجماهير السلبية..

انتهت النصف ساعة وقُرع الجرس فأقبل الطلاب على ملءِ الوعاء الثالث بأوراقهم الملوَّنة المثنية بكل فخر واعتزاز.. وكانت كلمات الدكتور إكس ملهمة في نهاية هذا الاجتماع، إذ شكرهم على حُسن تعاونهم ووعدهم أن امتلاء الأوعية سوف يساهم في تحسين حياة جميع الطلاب في البلدة، وسوف يحقق العدل للعديد من الطلاب الذين فقدوا أرواحهم نتيجة الجهل والخداع، ويعيد الحياة لأولئك الذين اتُّهموا ظلمًا بذنوب لم تكن من صنعهم، بل أشخاصٌ آخرون هم المسؤولون عنها، وفي ذات الوقت ذكَّرهم بأنهم قاموا بأداء جانبهم من هذه اللعبة على أكمل وجه،

وهو المسؤولية والجرأة، أمّا التغيير، فسوف يكون نتيجة هذه اللعبة وسوف يكون من جانبه هو والسلطات المعنية في هذا الأمر.. ثم ودعهم بابتسامة لطيفة..

غسان: الآن أعود لسؤالك سيدتي عن الهدف من السؤال الثالث، أو المغزى من هذه الدراسة، لكن لست أنا من سيجيبك، بل أوراق الطلاب هذه التي جُمعت في الأوعية الممتلئة أمامك.. تفضلي اختاري ورقة من الوعاء الأول واقرئي ما كُتب فيها..

مدّت المساعِدة يدها داخل الإناء لتسحب ورقة حمراء وقرأت ما دُوّن فيها: تشاجرت أمي مع أبي بسبب عودته ثمِلًا في منتصف الليل، وازدات حِدة الشجار بينهما حتى لجأ والدي إلى ضربها ضربًا مبرحًا، كنت أنا وإخوتي الثلاثة مختبئين في الغرفة المجاورة المظلمة، مُلتفين حول بعضنا البعض ونبكي بخوف كلما صرخت أمي جرّاء ضربها المبرح، من بعدها اعتاد أبي على ضرب أمي في كل ليلة يعود بها مخمورًا ليعود الخوف والرعب يدب في قلبي أنا وإخوتي الصغار، حتى جاء ذلك اليوم واستيقظنا في الصباح لنكتشف أن أمي قد اختفت من المنزل ولم نعد نراها منذ ذلك اليوم، حيث ادّعى والدي أمام الناس أنها هربت من البيت لأنها امرأة خائنة عديمة المسؤولية والضمير.. لذا أتمنى أن أمحو كل تلك الذكريات المخيفة المتعلقة بتعنيف أمي جرّاء ضربها المبرح وخوفي أنا وإخوتي جرّاء تلك الليالي المظلمة ومحاولتنا لكبت صوت بكائنا خوفًا من بطش أبي..

وضعت المساعدة الورقة من يدها وهي ترتجف وعلى وجهها ملامح التأثر، فقال لها الدكتور غسان: اسحبي ورقة أخرى.

فمدت يدها مرة ثانية لذات الوعاء وأخذت ورقة سوداء وقرأت ما بداخلها..

في أول يوم لدخولي للثانوية اشتبكت مع أحد الطلاب بسبب أنه كان متعاليًا ويُطلق الأوامر على الطلاب وكأنه الطاووس، وبعد رفضي طلبه بالجلوس بالمقعد الأخير من الصف لأنني لست صديقًا له، تعاركنا واشتبكنا بالأيدي، الأمر الذي أدى إلى أصابته بجرح طفيف في رقبته وبعض الكدمات، أستدعيتُ في ذات اليوم من الإدارة، وعلمت أن ذلك الطالب هو ابن مدير الثانوية الوحيد، احتُجزتُ وحيدًا في غرفةٍ مغلقة أبوابها لمدة ساعتين، حتى تم استدعاء والدتي لتحضر من قِبل الإدارة لأن والدي قد فارق الحياة منذ سنوات، ودخلت والدتي إلى الغرفة مع المدير الذي بدوره كان غاضبًا ومتسلطًا وعازمًا على فصلي من المدرسة، مع تقديم تقرير للثانويات الأخرى بعدم قبولي فيها، لأنه كما فهمت، فالمدير كان يُحسن إلى والدتي كل شهر بالمصروف، وهو من يدفع أقساط دراستي في هذه الثانوية.. حتى أن أمي توسلت بدموعها بعد أن ركعت على ركبتيها وهي تقبّل يديه كي يسامحني ويعفو عني هذه المرة، وبعد إذلاله لأمي بتذكيرها بالمصروف أمامي، وافق بشرط أن أعتذر لابنه أمام الجميع، وأن أبقى مطيعًا طيلة فترة إقامتي في هذه الثانوية، أجبرتني أمي على القيام بذلك كي لا ننحرم من عطائه، ولكي لا أُفصل من جميع مدارس البلدة، أصبحت بعدها إنسانًا آخر، مكسورًا ومحطّمًا أمام أمي، وأصبحت كلما نظرت في عينيها أتذكر إذلالها من المدير انتقامًا لابنه المتعالي.. تحوّلت حياتي إلى جحيم، فلم أعد أطيق النظر إلى أمي، أو إلى المدير وابنه، ولم

يعد لدي أصدقاء في المدرسة حتى، لأني أصبحت ذليلًا في نظر الجميع.

التوقيع: الغاضب دبليو.

وضعت المساعدة الورقة وبكت بحرقة، لأنها لم تصدق ما قرأته على الرغم من عملها كمساعدة للمدير لمدة طويلة.. أشار لها الدكتور غسان بأن تسحب عدة أوراق أخرى، لكن هذه المرة من الوعاء الثاني، وبدأت..

ورقة صفراء.. أشعر بالحزن، لذا بدأت بالتدخين..

ورقة صفراء أخرى.. أشعر بالعار، لذا ليس لدي أصدقاء..

ورقة سوداء.. أشعر بالغضب، لذا أعامل الجميع بعصبية وأفتعل العراك وأشرب الكحول..

ورقة سوداء.. أشعر بالخوف، لذا أشاهد الإباحية بعزلة في غرفتي..

ورقة حمراء.. أشعر بالقوة والثقة بالنفس، لذا أغازل الفتيات في الشارع، وأتكلم مع العديد منهن على الهاتف، ولدي بعض المغامرات الجامحة.

ورقة زرقاء.. أشعر بالاكتئاب، لذا أتعاطى المخدرات ولا أحب أن أواجه أصدقائي في المدرسة ولا رؤية مديرها وأتمنى أن أموت..

ذُعرت المساعدة ورمت الأوراق من يديها، فقال لها غسان:

– انتقلي إلى الوعاء الثالث.

فأخذت ورقة حمراء وقرأت..

الذنب كله يقع على أبي، هو من أجبر أختي على تلك الزيجة ليستفيد ببعض المال، وأختار له عقوبة أن يصبح فقيرًا وعاجزًا، لكي يعلم أن أولاده أهم من المال..

ورقة زرقاء.. الذنب كله يقع على عاتق جدي، لأنه هو من أعادنا مع أمي إلى منزل والدي ليضربها من جديد، واختار له عقوبة أن يُجلد بالسوط حتى الموت مثلما كان أبي يجلد أمي..

ورقة سوداء.. الذنب كله يقع على مدير الثانوية، فهو حوّلني إلى هذا الشخص المكسور، وعقوبتي له هي أن أراه يبكي بحُرقة ويتذلل أمامي بعد أن أقوم بخطف ابنه المدلَّل، وأرسل إليه قطعًا من جسده يومًا بعد يوم..

ورقة سوداء.. الذنب كله يقع على المجتمع المنحل أخلاقيًا الذي خلف هؤلاء الأشخاص الذين يعتدون على الأطفال، وعقوبتي هي أن يتم إخصاء كل المعتدين على الأطفال الصغار الضعفاء، ومن ثم حرقهم أحياء أمام المجتمع ليكونوا عبرة للجميع..

بإشارة من يد الدكتور غسان أعادت المساعدة الأوراق إلى الأوعية وهي ترتجف من هول ما قرأته، وقال لها وهي تجفف دموعها التي لم تتوقف لحظة:

– هذا كافٍ عليك، دعيني أقوم بعملي من هنا، لكن أرجو منك أن تتكتّمي على ما رأيت وما سمعت في هذه الجلسة لكي تحقق مرادها وينال كل ذي حقٍ حقه، ونساعد الطلاب على التحسُّن النفسي في حياتهم ليكون لهم مستقبل أفضل.. لدي طلب صغير قبل أن تغادري، هل من الممكن أن تعطي المدير هذه الوصفة التي سجلت عليها اسم دواء مهدئ للأعصاب، لأنه سوف يحتاجها في الأيام المقبلة، خاصةً عندما تظهر نتائج هذه الدراسة بعد فترة..

***

١ مليغرام

-٩-

– صباح الخير.

قال عمار لمساعِده وبيده فنجان قهوته المعتاد، وهو متوجه إلى مكتبه ليراقب حركة المطار والمسافرين.. وبعد أن جلس وضبط الكاميرات على الطائرة القادمة من دولة اعتادوا على مراقبة مسافريها عن كثب لكثرة تهريب المواد المخدِّرة على متنِها.. رنَّ هاتفه، وطلب المتصل منه القدوم إلى مكتب المسؤول الأعلى رتبة منه، فلبَّى النداء على الفور..

– أهلًا عمار، تفضَّل بالجلوس.. في الحقيقة وكما تعلم إننا في بداية كل عام نقوم بالترفيعات للأشخاص الشرفاء في السلك الأمني في المطار، وبما أنني سوف أتقاعد مطلع العام المقبل فإنني أفكر بترشيح اسمك لتأخذ

مكاني، لأنني على دراية بمبادئك الثابتة والتفاني في العمل الذي أثبته خلال سنوات خدمتك هنا.. لكن هذا المنصب يتطلّب الكثير من الشفافية، وبالتالي سوف يتم دراسة ماضيك وخلفيتك المعيشية دراسة أمنية سرية جديدة وأكثر توسعًا، لأننا في هذه الدولة نعتز كثيرًا بشرف المهنة ونعتبرها مقدسة.. لذا سؤالي لك: هل هناك شيء ما يجب أن أعلمه عن شخصيتك أو عن ماضيك وعائلتك أو أي شيء قد يعرقل ترشيحي لك؟ فكِّر جيدًا في سؤالي؛ لأن جوابك من الممكن أن يودي بك إلى الهاوية..

اجاب عمار بحزم وثقة:

– سيدي، إنه لشرفٌ كبير لي ان أتقدّم لمثل هذا المنصب، وأؤكد لك أنني أمضيت حياتي سعيًا للقبض على المجرمين والفاسدين الذين يسعون للنيل من هيبة الدولة وفساد المجتمع، ولا أخشى أبدًا أي دراسة أمنية عن حياتي لأنني أمضيتها كلها بصفتي يد القانون في العمل والمنزل و حتى بين الأصدقاء..

– عظيم جدًا، أريدك أن تتجهز لبعض الفحوصات النفسية لدراسة أهليتك لمثل هذا المنصب، وفي ذات الوقت تكون الدراسة الأمنية قد انتهت..

غادر عمار بعد أن غلبت السعادة تفاصيل وجهه، وبدأت الأفكار تتقلب في رأسه بعد أن علم أنه بات على بُعد خطوة واحدة من الحلم الذي لطالما أراد تحقيقه.. وصلته رسالة على هاتفه بموعد الفحص النفسي وعنوان المركز الذي سيتم به الفحص في اليوم التالي، فزاد هذا الأمر من سعادته وجعل يومه استثنائيًا حتى حلّ المساء، انتهى وقت عمله فهمَّ مغادرًا المبنى ليتفاجأ أن سيارة جيب ضخمة سوداء اللون نوافذها مستترة

تقف أمامه.. فُتحت نافذة السيارة ليطل منها صديقه القديم أسامة وينادي بصوت ودود:

– تفضل يا عمار، أريد التحدث إليك في أمر يخصُّ أمنك الخاص يا صديقي..

ارتعب عمار من هذه المفاجأة وتبادرت إلى ذهنه الكثير من الأسئلة، لكنه تفاديًا للفت الأنظار أمام مبنى العمل قرّر الترحيب بصديقه بطريقة ودودة والركوب معه دون إثارة المتاعب..

عمار: كيف تتجرأ على القدوم إلى مبنى عملي بهذا المنظر السخيف المثير للشك؟ وكيف علمت بمكان عملي في الأصل؟

أسامة: على مهلك أيها الصديق القديم.. احفظ عصبيتك هذه حتى تسمع ما سأقوله لك.. لكن لتوضيح الأمور، أنت تعلم أنني أستطيع أن أعلم ماذا وأين ومع من تعمل، وكل شيء عن حياتك بمكالمة واحدة، لذا هدِّئ من نفسك..

عمار: وأنا أيضًا أعلم كل شيء عنك وأراقب تحركاتك وأعمالك المشبوهة عن كثب.

ضحك أسامة ضحكة استهزاء وأكمل:

– أنت تعلم فقط ما أجعلك تراه.. أنا لاعب سياسة ورجل أعمال بارز ولدي شهرة واسعة، ووجهي على وسائل الإعلام في شتى المناسبات، لذا ضع حقدك وواجباتك الوطنية كفرد في السِّلك الأمني وركِّز على حياتك التي أنت مقدِم عليها الآن..

عمار: إلامَ تُلمِّح بكلامك هذا؟

أسامة: ما أحاول قوله لك يا صديقي القديم أنه يجب عليك التركيز
ن على تقييمك النفسي؛ لأنك على ما يبدو لم تعرف من هو المقيّم
نعك بعد..

عمار بدهشة: كيف علمت أنت بكل هذا؟

أسامة: قلت لك إن يدي طائلة في كل مكان ولدي الكثير من الآذان
لأعين، خاصة إذا كان الموضوع يخص تلك الليلة الملعونة..

ارتعب عمار لِذكر هذه الحادثة التي كان يعتقد أنها صبيانية قديمة ولا
ان له فيها عدا أنه كان حاضرًا ليس إلا، لكنه بدأ بربط الأمور لبعضها
لبعض بعقلية رجل الأمن المحلِّل للأحداث، وتذكّر عودة قابيل منذ ستة
اشهر واجتماعهم معه، وذِكره أنه درس الطب النفسي وافتتح عيادة
تخصصية للطب النفسي في مركز البلدة، فشهق عمار عندما أخرج هاتفه
وقرأ الرسالة الموجود فيها عنوان المركز الذي سيتم تقييمه فيه مرة ثالية،
وتذكّر سؤال الضابط المسؤول عن ماضيه، وبدأ يتمتم برعب ويقول: ما
الذي يحصل يا أسامة؟

أسامة: يبدو أنك بدأت تفهم المعضلة التي نحن بصددها.. اسمعني
جيدًا، القصة باختصار أن الضابط المسؤول في المطار سوف تنتهي
خدمته، وبالتالي توجَّب علينا وضع شخص مناسب مكانه لتيسير أمور
أعمالنا في الداخل، لذا اقترحتُ اسمك ليتم ترشيحه، لكن لدينا عقبات
قانونية يجب عليك أن تتجاوزها، وهي الفحص النفسي والدراسة الأمنية،
وبعد أن أصبح مركز قابيل هو المركز المعتمد لدى الدولة للقيام بهذه
الفحوصات أصبح من المستحيل أن أتدخل في النتائج، لأنني أريد أن
أبقى بعيدًا عن أعين قابيل.

عمار: هل تحاول القول بإنك أنت من سعيت لترشيحي لأتولى أمن
المطار لكي أرعى مصالحك؟! إنك حالم يا أسامة، فأنا أشرف من ذلك
بكثير ولا أبيع مبادئي بذهب الدنيا وهدفي الأول والأخير هو إسقاطك
أنت وأمثالك..

قهقه أسامة قائلًا:

– لا تدع الغباء والحقد يعميانك عن الحقيقة، أنت تعلم أن الكثير
من التعاملات والمواد تعبر من المطارات بموافقات أمنية، ولا أحد يستطيع
الوقوف في وجه مثل هذه التعاملات التي تقدّر بملايين الدولارات، وتغذّي
خزينة الدولة، لذا لا تكن واهمًا بأنك سوف تغير مجريات الأمور وتحقق
قوانين المدينة الفاضلة.. تذكّر جيدًا أنني أُقدم لك خدمة العمر على طبقٍ
من ذهب، بحيث تحقِّق أنت أحلامك ونضمن نحن وجود شخصٍ طيب
السمعة بجانبنا لتسيير أعمالنا.

عمار بغضب: إنك حالم يا أسامة..

ثم فتح باب السيارة محاولًا النزول، لكن أسامة سحبه من يده وقال له:

– يبدو أنك لم تفهم ما أنت مُقبل عليه.. قابيل سوف يقيِّمك على
أنك مجرم لا تستحق استلام منصب في الأمن بسبب حقده القديم، وخلال
الدراسة الأمنية عن حياتك سوف تطفو قصة مقتل حيان ومشاركتك في
التعتيم على تلك الليلة، وبالطبع سوف تطفو معها الكثير من الصور
والتسجيلات التي تُظهر سهراتك القديمة، وأهمها تلك الليلة.. والعرض
الذي أقدمه لك الآن سوف أجعله أكثر وضوحًا.. أنت تهتم بالتقييم مع
قابيل وتحاول التودد إليه والإجابة عن أسئلته بغموض وإبعاد الشكوك

عني وعنك وتنجح في الاختبار، وأنا أهتم بالدراسة الأمنية لحياتك لتكون نظيفة كليًا، وبالتالي أنت تستلم منصبك مطلع السنة الجديدة، وأنا أطمئن بأن تجارتي وأعمالي لن تتوقف لأنك أنت من يرعاها.. إذا نظرت إلى نتائج هذه الاتفاقية نظرة ذكية فسترى أنها فرصتك الذهبية، أمّا أنا، فاستطيع أن أقوم بصفقة أخرى مع شخص آخر في مكان عملك، وأدعمه ليصبح في سُدّة السلطة في المطار بينما أنت وسيرتك المهنية تتعفنان في السجن.. لذا فكّر في كلامي جيدًا وسأنتظر ردّك غدًا بعد موعدك مع قابيل..

نزل عمار من السيارة بعد أن اعتراه الغضب وبدأ يلوم نفسه جرّاء ما فعله بالماضي لأنه يكلفه الآن التضحية بمبادئه وعمله وحلمه الذي سعى إليه عشرين عامًا.. لم ينم عمار تلك الليلة، بل ظلّ يحاول الحصول على منفذ من هذه الورطة التي أوقعه فيها أسامة من وجهة نظره، وهذا جعل دافع الكره والبغض يتزايد تجاه أسامة أكثر فأكثر، لكن على ما يبدو أنه وقع في الشِّباك هذه المرة، ومع ذلك فإنه عازم على أخذ سكين معه ليحارب وهو في الشِّباك، لكن ليس قبل أن يصل إلى سُدة السلطة، وحينها ستتوسع خياراته وسوف يفهم أمورًا كثيرة عن أعمال أسامة، ومهما كان حريصًا ودقيقًا في أعماله فسوف يأتي يوم ويقع كما وقع الكثيرون من قبله.

***

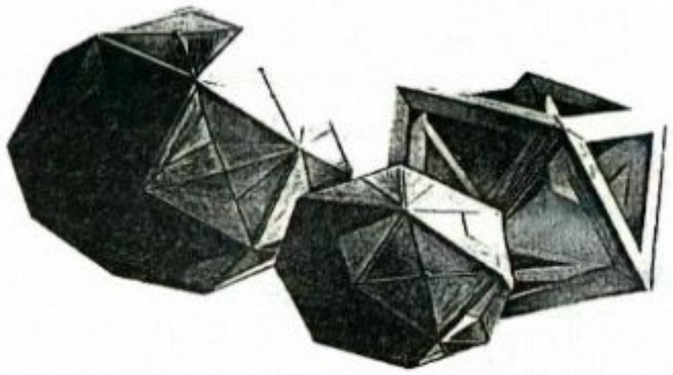

-١٠-

دخل عمار مبنى العيادة النفسية فلفَت انتباهه موقعها الإستراتيجي، لكنها ليست كبيرة بالشكل الذي كان قد تخيله بعد أن عمل دراسة سريعة وجمع بعض المعلومات عن كيفية سير هذه العيادة وطريقة تعاقده مع الدولة لجعلها المركز المعتمَد لأفراد السِّلك الأمني، وكيف أن السيرة الشخصية المبهرة لغسان جعلت من تقدُّمه في عمله سريعًا للغاية..

سجّل اسمه في لائحة المواعيد، دقّت الساعة التاسعة وجاءت مساعدة لطيفة جدًا لتمشي معه إلى مكتب الدكتور غسان كما ادّعت..

د.غسان: أهلًا وسهلًا أيها الصديق القديم، تفضّل استرح، كيف هي فهولتك؟

عمار: سكر زيادة..

غسان: بداية خاطئة يا صديقي، فمع التقدُّم بالعمر توجَّب عليك التفكير في صحتك أكثر، لأنني متأكد من أنك على الأقل تشرب ثلاثة فناجين قهوة كل يوم، ويتضاعف الرقم أثناء مناوباتك، وبالتالي السكري سوف يجد له طريقًا للدخول إلى جسدك.

رمق عمار الدكتور غسان بنظرة لا مبالاة وقال له بحسم:

– إن كنت تعتقد أن حركات الكذب والضحك على اللِّحى هذه التي تقومون بها في الطب النفسي سوف تُجدي نفعًا معي فأنت مخطئ تمامًا يا صديقي.. فلا تمارس الاعيبك القذرة معي، ولا تنسَ أنني عميل سريّ، أي أنني محقِّق ودرست هذه الممارسات، بل واستعملها لاستجواب المشتبه بهم والمجرمين.. لذا وفِّر على نفسك عناء كل هذه التحضيرات في غرفة التحقيق المبتذلة هذه من كرسيك المرتفع الدوَّار خلف الطاولة لتخفي حركات جسدك وإلتباث سيطرتك، والكراسي المنخفضة العادية للضيوف لتجبرهم على الاستعانة بحركات وإيماءات توضح ما يشعرون ويفكرون، وحركة الجدار الزجاجي القابع خلفي لأشعر بعدم الارتياح وأنني مراقب كل الوقت، دعنا ننتقل إلى مكتبك الحقيقي لتجلس بجانبي وتقول لي بكل شفافية وبجولة ماذا تريد لكي أنجح في هذا التقييم السخيف؟

غسان: عظيم جدًا، هذا هو تمامًا ما توقعته، تفضَّل معي لنعبر الجدار خلف المكتبة لنصل إلى الباب الذي يؤدي إلى غرفة مكتبي المريحة لاستقبال المرضى الحقيقيين، مع أنني أفضِّل استقبالك في غرفة تحقيق المجرمين.. يبدو أنها تناسبك أكثر..

عمار: لا تتخيَّل أبدًا أنني سوف أتقبَّل منك أي تعليق آخر بهذا الخصوص.. تصرَّف كالرجال وتكلَّم مثلهم لتكتمل الجلسة بسلام وكل منا يحصل على غايته..

غسان: فهمت أنك لا تحب المزاح الهادف، لذا دعنا ندخل في صلب الموضوع. مَن صوفيا؟

عمار ضاحكًا: زوجة ماجد تقصد!!

غسان: إذا كانت هي ذاتها صوفيا القديمة فنعم.. قصتها هو ما أسأل عنه.

عمار: ما أعلمه أنها كانت معجبة بأخيك حيان رحمه الله، لكنه لم يبادلها الإعجاب مع أن سلطان كان يتزجَّى حيان من أجل أن يتوسَّط له عندها لكي تصبح حبيبة له، لكن حيان رفض بقوله لسلطان: من أراد الشيء فليسعَ إليه.. ثم بعد الجامعة علمتُ بزواج ماجد من صوفيا، كيف تم ذلك؟ لا أعلم! وبعد خمس سنوات من زواجهما أنجبا طفلًا.. لكن صوفيا تخرجت في كلية الحقوق وأصبحت قاضية بعدها واسمها في القصر العدلي كبير جدًا، وتطمح لتصبح المحامي العام الأول في البلدة ولديها كل المؤهلات لذلك.. لا أفهم لماذا تسأل عنها؟

غسان: أنا هنا من أسأل يا صديقي وأنت عليك الإجابة..

عمار: ممتاز، لديك سؤالان آخران فقط، ولا تحلم بأكثر من ذلك..

غسان: ما الذي حصل ليلة مقتل أخي حيان؟

ردَّ عمار على السؤال ببرود لأنه كان متوقعًا، مع أن غسان كان متلهفًا لتفلت حركة أو إيماءة يتحرَّى منها صدق أو كذب عمار..

ليلة حالها كحال سهراتنا عندما كنا صغارًا لا نفهم شيئًا من الحياة، تعاطينا فيها المشروبات والحبوب المخدِّرة التي أحضرها حيان، وكانت الأجواء كلها ضحك وغناء وتحديات لأن الجميع كان فرحًا بنتائج الثانوية، عدا وائل، كان حزينًا ومكتئبًا لأنه رسب.. إلى أن بدأ حيان بالاختناق والتخبط وسال الزبد من فمه بعد أن شرب كأسه الأخير من التحدي ولم يستطع أحدٌ مساعدته لأننا كنا صغارًا.. شعرنا بالخوف حينها، واتصلنا على الإسعاف على الفور لكن كان الأوان قد فات..

غسان: مَن الذي كان مشاركًا في التحدي الأخير؟ وكم كانت الساعة عندما بدأ حيان بالاختناق؟

عمار: لا أتذكر، لكن كان سلطان وحميد عاشقان لتحديات الشرب تلك.. وأعتقد أن الساعة كانت حوالي الواحدة.. إلى هذا الحد عليك أن تكتفي يا قابيل، فلا فائدة من نبش الماضي، وأنا أؤكد لك وأقسم بشرفي أن أخاك حيان توفي بسبب الجرعة الزائدة من حبوب المورفين واختلاطها مع الكحول.

غسان: لا أشك لحظة في سبب وفاه أخي، لكن ما أشك به هو المسبب، فأنا وأنت نعلم أن حيان كان متعاطيًا قديمًا ولديه خبرة في تجربة هذه المواد، وكان يعلم مقدار ما يجب أن يتعاطاه ومتى يجب أن يتوقف.. مع ذلك شكرًا على صراحتك وسوف تصل نتيجة هذا الاختبار إلى المسؤولين عنك خلال يومين.

عمار: انتظر.. لديَّ سؤال: لماذا لم تبدأ بالتوسُّع في المبنى كما قلت سابقًا في اجتماعنا السابق، مع أنه كما فهمت أن مشروعك وشمعة عيادتك

الصغيرة هذه لقيت أصداءً كبيرة، خاصة عند وزارة التعليم، وكما يبدو لدى وزارة الداخلية أيضًا.

غسان: قريبًا إن شاء الله، فاليوم لديَّ اجتماع مع سلطان لأنه على ما يبدو قد وجد المشتري لبيت عائلتي القديم، وبالتالي تصبح السيولة متوفرة بين يدي للتوسعة.

التفت عمار أثناء مغادرته وقال باستهزاء: سلطان!! توقعتك أذكى من ذلك لتثق بهذا الجشع الحقير.. وأكمل طريقه مغلِقًا الباب خلفه.

-تفاجأت كثيرًا من ردة فعل عمار تجاه سلطان، وأصبح لديَّ العديد من إشارات الاستفهام حوله، خاصةً بعد أن علمت أنه كان معجبًا بصوفيا، ورفض حيان مساعدته للتقرُّب منها، وبالتالي الدافع لقتل حيان موجود وهو الأقوى من بين المجموعة، وهو الغيرة والحقد، وفي ذات الوقت شخصية سلطان الانتهازية التي أجمع عليها الجميع.

سجَّلتُ إضافات عمار للقصة في دفتري الصغير لكي أنقله إلى الأوراق والمخطَّط الذي أعمل عليه وأخفيه بغرفة خاصة في عيادتي على أن كان هناك تحديات للشرب وسلطان وحميد شاركا بالتحدي الأخير قبل الاختناق، ودوَّنت تحليلي لشخصية صوفيا، ويبدو أنه حان الوقت للبحث عنها عن قرب أكثر لأن اسمها بدأ يظهر في كل مكان، ويبدو أن ارتباطها بات واضحًا بتلك الليلة.. لكن الملاحظة ذاتها تتكرر في موضوع التوقيت.. يبدو أنهم متفقين ومتدربين جيدًا على الخطة.. لكن هنالك ساعة كاملة بين الحادثة والاتصال بسيارة الإسعاف.. ما الذي حصل في تلك الساعة؟!

***

١٠ مليغرام

-١١-

– اعذرني على تأخُري، لكن كان لدينا اجتماع طارئ في الشركة وبالكاد انتهينا منه.

قال المهندس سلطان بعد أن ألقى التحية على الدكتور غسان ووضع يده على كتفه تعبيرًا عن المودة من وجهة نظره، لكن غسان كان يعلم أنها من صفات الغطرسة والاعتقاد بأن الشخص المقابل لك أدنى منك رتبةً وجاهًا.

غسان: لا عليك، تأخُرك لعشر دقائق أعطاني الفرصة لأرى مدى جمال تصميم مبنى شركتكم، إنه مميز حقًا وفيه من الذوق والبذخ الكثير.. والتبهت إلى مكتب ماجد المحاذي لمكتبك لوجود اسمه على الباب، لكنه لم يكن موجودًا.

سلطان: هكذا يجب أن يبدو مظهر شركات الاستثمار العقارية، باذخة وأنيقة، لتجذب كل من يدخل إليها، وهذه ميزة لنجاح تصاميمي.. أما بالنسبة لماجد فلديه اجتماع مهم خارج الشركة حتى وقت متأخر لذا يعتذر عن عدم حضوره.

جلس سلطان خلف مكتبه المزيَّن بالأوسمة والتصاميم التي لاقت النجاح الأكبر في البلدة، وخلفه العديد من الصور له مع شخصيات مهمة بجانب شهاداته المحاطة بإطارات غليظة لتلفت الأنظار.. ثم أخرج من الدرج أوراقًا وحمل سيجارًا وقدَّاحة وجاء ليجلس بجانب غسان..

سلطان: هذا عقد بيع بأفضل سعر قد تحصل عليه في السوق موقَّع من المشتري، اقرأه جيدًا.

تناول غسان العقد فوجد أن السعر الموجود في العقد هو ضعفَيْ ما كان يطلبه لبيع المنزل المشؤوم، ولا يوجد اسم للمشتري، توقيع فقط.

فقال غسان بانبهار:

– هذا عظيم يا صديقي، وكيف تريد أن تأخذ حصتك أنت جرَّاء هذه الصفقة؟

اقترب سلطان من غسان أكثر ووضع يديه على شكل برج للأعلى وبصوت يشبه الهمس قال:

– حصتي هي أن أقوم بتصميم بنائك الجديد الذي تطمح إليه بما يتناسب مع معاييرك التي تراها مناسبة أو مع معايير الدولة التي وقَّعت عقد التوسعة معها..

وأتبع كلامه بغمزة ثم عاد برأسه إلى الوراء بعد أن أشعل سيجاره لينفث

دخانه إلى الأعلى وترتسم ضحكة حاول أن يخفيها بذكاء بحلقِ فمه وأنفه ثلاث مرات متتالية..

صمت غسان قليلًا ليعيد ترتيب الصفقة في رأسه بعد أن كشفت لغة جسد سلطان الكثير مما يخفيه، أولها: ارتباكه عند اقترابه منه بوضع يديه على شكل برج، ثم الرجوع إلى الخلف ونفث الدخان إلى الأعلى ليدل على أنه يعلم شيئًا بل متأكد منه، لأنها حركة غرور وثقة بالنفس..

غسان: موافق، لكن على شرط..

قاطعه سلطان بسرعة وهو يقول:

– شرطك مقبول، تريد أن تعلم كيف علمت كل هذا ومَن المشتري، وأقول لك بإنني على دراية بكل الصفقات التي تبرمها الدولة، وكل الأراضي التي تمنحها لدعم المشاريع الجديدة، وهذه الأرض التي منحوك إياها بسعر رخيص جدًا تقدمت للحصول عليها الكثير من المرات لموقعها الإستراتيجي الذي بدوره يكون واجهة للبلدة، وعندما علمت بكل هذا عرضت أن أشتري بيتك بضعف ثمنه على أن توافق على وضع تصميمي على بنائك الجديد ليشمل قسم الأطفال وبهذا أكتسب شهرة واسعة بوضع اسمي على أفضل واجهة للمدينة، والذي بدوره يمهِّد لي العمل مع الدولة بصفقات مماثلة وبأرقام خيالية.

ضحك غسان بسخرية على أسلوب سلطان الغبي في التكتم على الأمور، وتذكَّر كيف كان يلوم وائل المسكين ويتهمه بأنه يتفلَّت منه الكلام بسهولة، وأحسَّ غسان في ذات الوقت أنها فرصته الثمينة للحصول على إجابات مهمة لسهولة الدردشة مع سلطان..

سلطان: ما المضحك في الموضوع يا قابيل؟

غسان: أنا لا أبالي بحياتك ومستقبلك المهني وجمع ثروتك التي تسعى إليها، وشرطي كان هو الإجابة على بعض الأسئلة التي أحتاج إلى معرفتها، مع أنني لا أنكر أنني لم أكن أعلم أنك ماكر جدًا في عملك إلى هذه الدرجة وطموح وتسعى إلى الثراء أكثر.

أحس سلطان بالخجل من موقفه المتسرّع هذا، وتذكّر أن الشخص الذي أمامه هو قابيل، لذا يجب أن يكون على حذر كي لا يمارس الاعيبه ويستدرجه بالكلام الذي من شأنه أن يزج به في السجن فتتلاشى سمعته وثروته التي هو مستعد للموت فداءً لها.

سلطان: سؤالان فقط يا قابيل وتوقّع عقد بيع البيت وتوقّع الورقة التي تليها، وهي اتفاقية بيني وبينك على أنني من سيقوم بتصميم بنائك الجديد.

غسان: من هو الشخص الذي ملأ الأكواب في التحدي الأخير قبل اختناق حيان وموته؟

بدأ سلطان بسحب باقة قميصه علامة للغضب والإحباط وبدأ يطرق بالسيجار على طرف المنضدة عدة طرقات وهي علامة ارتياب وصراع داخلي قبل أن يبدأ حديثه..

سلطان: ماجد هو صاحب فكرة تحدي الشرب مع الحبوب التي مانعها الجميع في البداية، وهو كان المسؤول عن ملء الأكواب، لأنه الشخص الوحيد الذي رفض تعاطي المورفين معنا، لكننا اتفقنا على تخفيف قوة

المشروب كي لا يتضارب مع المورفين الذي جعلنا في عالم آخر وأعطانا سعادة لا مثيل لها.

غسان: كانت الساعة حوالي الواحدة عندما بدأ حيان بالاختناق، وتم الاتصال بالإسعاف الساعة الثانية تقريبًا..

هزّ سلطان رأسه موافقًا، فأكمل غسان:

- ما الذي حصل خلال هذه الساعة؟

بدأ سلطان بالكلام وهو يحك تحت أذنه ويضع يده على فمه والعرق يتصبب منه، وكل هذه إيماءات توحي بالكذب ولا تخفى على أحد..

سلطان: أصابنا الذعر في البداية وبدأنا بالصراخ على حيان ليستيقظ، لكن ما إن أكد ماجد أن نبض حيان بدأ يتلاشى حتى صمت الجميع، وبدأ وائل وحميد وعمار بالبكاء، وأنا وماجد حاولنا أن ننعش حيان بكل الطرق التي نعرفها بالماء والمعطر وبالضغط على قلبه وحتى بالنفخ في فمه، لكن ما من جدوى....

قاطعه غسان فجأة: وأين كان أسامة؟

أكمل سلطان: لا أعلم، ولا أتذكره في هذا المشهد، كل ما أعلمه أن أسامة جاء بعد أن باءت كل محاولاتنا لإيقاظ حيان بالفشل، وقال لنا إنه يجب أن نخفي كل المخدرات والكحول التي بحوزتنا، وأرغمنا على التقيؤ لنخرج كل ما شربناه ومن ثم جاءت سيارة الإسعاف.

غسان بغضب: من الذي اتصل بسيارة الإسعاف؟

ارتبك سلطان ووقف على قدميه، وبدأ يتلمّس ساعته بقلق، ويصرخ ويقول:

– لا أعلم، لا أعلم يا قابيل، إلى هنا انتهينا، وقّع على هذه الأوراق اللعينة وليمضِ كلٌّ منا في سبيله..

وقّع غسان على الأوراق ورماها في وجه سلطان بغضب وقال له وهو يغادر:

– عليك أسوأ اللعنات أنت ومال الدنيا كله.

***

-١٢-

نقرتان على الباب ودخلت سكرتيرة القاضية صوفيا حاملة معها مصنف الأوراق للتوقيع عليها وتحويلها إلى المحكمة.

صوفيا: هل هناك الكثير من المواعيد اليوم؟

السكرتيرة: جدولك مليء بالمراجعين، ولديك موكل جديد على ما يبدو ينتظر في الخارج ولم يفصح عن اسمه الكامل، لكنه أبلغني بأن أقول لك إنه الدكتور غسان شقيق حيان..

وقفت صوفيا على قدميها بسرعة وأبعدتها عن طريقها بحركة من يدها، ثم ذهبت تجاه الباب وفتحته بلهفة لتستقبل غسان بحرارة لم يسبق

@ART_OF_BOOK

للسكرتيرة أن شهدتها من قبل من أستاذتها، وطلبت منها إلغاء جميع مواعيد اليوم بعد أن طلبت القهوة على عجالة..

استغرب غسان هذه الحفاوة التي استقبلته بها صوفيا، على الرغم من أن وجهها بدا مألوفًا له، وبدأ حديثه قائلًا:

– لا أعلم من أين أبدأ، ولكن يبدو أننا تقابلنا من قبل، لكنني لا أتذكر التفاصيل مع أنني أتمتع بذاكرة لا بأس بها!

صوفيا: لم نتقابل بشكل شخصي، لكن على الأغلب تتذكر أيام الثانوية حينها كان كل أصدقائك يقفون على أبواب المدرسة الثانوية للطالبات، لكي يعاكسوهن ويلقون النكات الطريفة وما إلى ذلك، وأتذكر أنك أتيت مرة مع أخيك حيان –رحمة الله عليه– وأصدقائه لمعاكسة الفتيات، وحينها تكون قد رأيتني.

تذكّر غسان هذه المرة التي أصرّ فيها حيان على اصطحابه معه للنظر إلى الفتيات الجميلات ومغازلتهن، لكنها كانت مرة وحيدة وأخيرة لأنه شعر حينها أنه قذر ومثل هذه التصرفات لا تمثل شخصيته.

ضحك غسان بخجل ثم قال:

– ليست ذكرى جيدة للبدء بجلستنا هذه، لكنني أؤكد لك أنها ليست شخصيتي..

ضحكت صوفيا بصوت مسموع وقالت:

– لا عليك دكتور غسان، الجميع يعلم أنك لست من هذا النوع وأنك كنت الأذكى، لكنها أيام المراهقة التي لا تُنسى..

ارتشفت القليل من قهوتها ثم وضعت فنجانها بعد أن أصدر صوتًا

مسموعًا يدل على انتقال الجلسة إلى حالة الجدية، وانتزعت نظاراتها وشبكت يديها فوق مكتبها وأمالت رأسها ناحية غسان، وسألته والجدية بدت على صوتها:

– كيف أستطيع مساعدتك دكتور غسان؟

غسان: أريد أن أعيد فتح قضية موت أخي حيان، وأريد أن أوكلك أنت برفعها..

لبست ذات النظرة الجدية ودون أي تعابير جديدة قالت:

– ومن المتهمون؟

غسان: تتفقين معي أنها جريمة قتل إذن؟

صوفيا: وهل يجب أن أتفق معك لأعلم أسماء المتهمين؟

غسان: أصدقاؤه الذين كانوا بصحبته تلك الليلة.

صوفيا: هل لديك أدلة على هذا الاتهام؟

غسان: الكثير من الأدلة..

ورمى على طاولة مكتبها ملفًا فيه الصور التي وصلته، ولائحة أسماء المشتبه بهم مع أقوالهم، وتقرير الطبيب الشرعي والأمن الجنائي للحادثة..

وأخفى الذاكرة التي عليها تسجيلات الصوت.

تصفحت صوفيا الملف باهتمام بدًا على وجهها ثم قالت:

– هل تعلم أن أحد المتهمين الموجودين في هذا الملف هو زوجي ماجد؟

غسان: حقًا! لم أكن أعلم أن القاضية صوفيا التي تطمح بأن تكون

الخامي العام الأول في البلدة مرتبطة بمجرم، كيف تعتقدين ان هذا يخدم مصلحتك في المستقبل؟

صوفيا: هل تستعمل أسلوب الابتزاز هذا على الدوام لتحصل على مرادك يا قابيل؟

غسان: إنه الأسلوب الأنجح مع المجرمين..

صوفيا: أفصِح عما جئت من أجلِه..

غسان: جئت أبحث عن الأجوبة التي كما فهمت من بحثي عنك أنني لست الوحيد الذي أنتظرها.. لذا دعينا نبدأ. من أنتِ؟ وماذا كانت علاقتك بأخي حيان في السابق؟

صوفيا: أنا القاضية صوفيا زوجة المهندس ماجد، ولم يكن لي أي علاقة سابقة مع أخيك المتوفى رحمة الله عليه.. كان حبًا وإعجابًا من طرف واحد وانتهى مع وفاته.. وبما أنك علمت أنني أبحث عن الأجوبة أيضًا قل لي، ما ادعاءاتك تجاه المتهمين؟

غسان: أولًا قتل بدافع الغيرة ثم التستر على جريمة..

صوفيا تقصد أن ماجد قتل حيان بدافع الغيرة، والباقين تستروا على ماجد لأن عائلته ثرية؟!

غسان: ومن قال ماجد! تحرياتي تقول إن دافع سلطان أكبر بكثير، فهو الذي طلب من حيان أن يتوسط له عندك للاقتراب منك.

صوفيا: وما ذنب ماجد إذن لتأتي وتبتزني بمثل هذه الاتهامات؟

غسان: هذا هو سؤالي، لماذا تزوجتِ ماجد وليس سلطان؟

حاولت صوفيا أن تضحك طويلًا لتغطي ارتباكها ثم قالت:

- لديك أجزاء منقوصة في القصة، وقضيتك هذه لا ينفع أن تصل إلى المحكمة! يسقطها القاضي بدقيقتين ويطالب المتهمين برفع دعوى مضادة عليك لتشويه السمعة لأنك تعلم مراكزهم المهمة أيها الطبيب العظيم..

أعتقد أنك تستطيع المغادرة الآن لأنني اكتفيت من هذا الهراء..

غسان: بالتأكيد سوف أغادر. لكن قبل ذلك، هل تعلمي لماذا رفض حيان الاقتراب منك ومبادلتك المشاعر؟

ارتجفت صوفيا وغيّرت من جلستها لتظهر عليها ملامح الإنصات، فأكمل غسان:

- لأنك استغلالية وانتهازية! هذا هو تمامًا ما كتبه عنك حيان في مذكراته قبل أن يُقتل، يبدو أنه كان يعلم أنك أنثى لعوب، لأنه كما يبدو حين سنحت لك الفرصة بالاختيار بين ماجد وسلطان اخترتِ صاحب الثروة والعائلة المعروفة، ليساعدك بعلاقاته القوية على أن تحققي أحلامك الطموحة.. يا لكِ من حثالة!

صرخت صوفيا بعصبية ويداها ترتجفان بقوة وقطرات من الدمع بدأت تسيل على خديها:

- اخرس يا قابيل، اخرس، أنت لا تعلم شيئًا، بقيتُ أسبوعين في المشفى أعاني جرّاء فقدان حيان تلك الليلة، كان حب حياتي وكنت مغرمةً به إلى أبعد الحدود، لكنه لم يكن مهتمًا بذلك أبدًا.

قاطعها غسان بلؤم: إذن أنت من زرعت فكرة القتل للانتقام من حيان بالاتفاق مع ماجد بعد وعدك له بالزواج إذا تحقّق ذلك! هذه كانت خطتكما منذ البداية..

بدأت صوفيا برمي الأشياء الموجودة على مكتبها بوجه غسان، وبصوت صارخ قالت:

– اخرس أيها الحقير، عليك اللعنة يا قابيل، أنت لا تفهم ماذا تقول.. تقرَّبت من ماجد بعد وفاة حيان لمعرفة التفاصيل، ثم أصبحنا أصدقاء أيام الجامعة وتزوجنا بعدها، هذه هي كل الحكاية. اخرج من مكتبي على الفور أيها الجاحد.

ثم فتحت باب مكتبها مشيرةً له بيدها للخروج..

اقترب منها خارجًا وقال:

– ماذا قدمت لي ولحيان المقتول غير المعاناة حتى تقولين إنني جاحد؟!

صرخت صوفيا والدموع تغطي وجنتيها:

– لقد أثبتَّ اليوم لي أنك لست فقط جاحدًا وناكرًا للمعروف، بل إنك طبيب نفسي غبي وتستحق ما فعلوه بك تلك الليلة ألف مرة.. اغرُب عن وجهي، قابيل الأحمق.

غادر المكتب بعد أن انطلت عليها حيلة غسان بأنه قد قرأ مذكرات أخيه الغير موجودة، ولكن هدفه من هذه الحيلة كان دفعها للغضب عن طريق العبث بمشاعرها الحقيقية التي كانت تُكِنها لأخيه كي تبوح بقليل مما تخفيه عن تلك الليلة وسر ارتباطها بماجد..

التقى غسان بسلطان على بوابة المبنى بصحبة ولد صغير، ومن شدة المفاجأة تمتم سلطان وقال:

– ماذا تفعل هنا يا قابيل؟

أجابه غسان بعد أن لفت انتباهه الشبه بينه وبين الطفل الذي بصحبته:

– هل هذا طفلك يا سلطان؟

ارتبك سلطان واحمرّ وجهه، وأمسك ربطة عنقه ليشدها للأسفل بيده، وفي اليد الثانية أمسك بالولد ليقرّبه منه وقال:

– هذا موسى، ابن ماجد..

قاطعه غسان بسؤال عفوي خاطف:

– ولماذا هو معك؟

ارتبك سلطان وقال: ماجد لديه اجتماعات مهمة، لذا أحضرته من المدرسة ليصل إلى والدته الأستاذة صوفيا كما تعلم..

ابتسم غسان بخبث لا مثيل له وقال له:

– آه صحيح، الأستاذة صوفيا والدته، أوصل سلامي لها، إنني بالكاد انتهيت من جلستي معها، يا لك من إنسان نبيل يا صديقي القديم!

ثم غادر غسان وهو يتمم بخبث:

– سلطان العظيم، يا لك من إنسان نبيل!

***

-١٣-

– اتصل ماجد عليّ بعد أن عَلِم من زوجته صوفيا ما حدث في مكتبها على ما يبدو، أو ما نقلته إليه جرّاء تلك الجلسة، وطلب لقائي لتوضيح الأمور، لكنني حاولت جاهدًا أن أؤجل اللقاء إلى آخر الأسبوع إلى أن أتأكد من بعض الشكوك التي بدأت تساورني، لكن ماجد أصرّ على اللقاء يوم الأربعاء، وخلال الأسبوع اجتمعت مع سلطان سريعًا، وتسلمت مبلغ البيت كاملًا، وحاولت أن أمُر بجانب دكان وائل لألقي التحية عليه..

– كيف حالك أيها الصديق القديم؟

وائل: أهلًا قابيل، تفضّل، اشرب الشاي بالنعناع، إنه ساخن.

شكرته على دعوته فأكمل وائل حديثه بترقُّب:

– ما الذي أتى بك إلى مثل هذه الأحياء يا قابيل؟

غسان: في الحقيقة لديّ بعض الأبحاث والدراسات في المدارس العامة، وكنت في المدرسة القريبة من الحي هنا وتذكرت أنك تعمل في دكان والدك رحمة الله عليه، فأتيت لألقي التحية عليك وأهنئك على تربيتك لأطفالك الذين قابلتهم في المدرسة وأجريت معهم حوارًا لطيفًا..

ارتعب وائل وهو يصب كأس الشاي بيده المتسخة، وباليد الأخرى يمسح تعرُّقه وقال:

– وما الحوار اللطيف الذي أجريته معهم؟

غسان: قلت لهم بكل بساطة إني صديقك منذ الصغر، وأعرف عنك ما لا يعرفه الكثيرون.

قاطعني وائل بغضب وركل بقدمه الكرسي الصغير الذي كان يجلس عليه وقال لي:

– عليك اللعنة يا قابيل، أقسم لك إن اقتربت مرة أخرى من أطفالي سأقتلك بيدي، هل تسمع؟ سأقتلك بيدي دون تردُّد.

رفع وائل يديه المرتجفتين في وجهي بعد أن حمل سكينًا صغيرًا وهو يضغط على أسنانه بعنف وجسده يهتز غضبًا..

غسان: اجلس وكفاك تتصرف كالأطفال الصغار، كنت أمزح معك، قابلتهم ولم أقل لهم إني أعرفك..

هدأ وائل قليلًا بعد إشارتي له بالجلوس بكل هدوء ووضع من يده السكين وقال: ماذا تريد مني يا قابيل؟

شربت كأس الشاي في رشفة واحدة واقتربت منه لأقول:

– قابلت شيخك أيضًا مدرس الدين في المدرسة، وعندما سألته عن مكان دكانك بعد أن قلت له إني صديق قديم لك أيام الثانوية، قال لي إنك في تلك الأيام كنت تأتي إليه طالبًا المغفرة من الله على ذنبك الذي تجازي نفسك عليه، وقال أيضًا إنك كنت تحرق يديك بسكين حامية لتكفّر عن ذنبك، وسألني إن كنت أعلم شيئًا لأنه يشعر بالحزن والأسى كلما رأى روحك الحزينة تتألم هكذا، فقررت بعد سماع هذه القصة أن أسامحك على اقتحامي لك بالمشاركة في مقتل أخي. أمّا تسترك على الجريمة، فهذا أمر بينك وبين ربك هو يحاسبك عليه، لكن لديّ شرط واحد لمسامحتك..

قال وائل بلهفة: وما شرطك؟

أجبته ببرود: أريد منك أن تسافر معي إلى مكة يوم الخميس لأداء مناسك العمرة، لعل الله يغفر لي ولك ذنوبنا وأخطاءنا، ولا تقلق، تكاليف الرحلة وهدايا الأطفال كلها مدفوعة.

ارتبك وائل وتردَّد كثيرًا لأن اليوم كان يوم ثلاثاء، أي سوف يسافر بعد يومين، لكنه استسلم لمطالبي لأنني راهنت على أنه كل ما كان يريده في تلك اللحظة أن ينتهي ألمه ويكفّر عن ذنبه الذي جعل من حياته تعيسة، وفي ذات الوقت يبدو أنه وجدها فرصة عظيمة للتقرُّب من الله وزيارة مكة للمرة الأولى لعل الله يغفر له ذنوبه ويعود ليخبر شيخه عن تفاصيل الرحلة التي بها سوف تُشفى روحه.

***

-١٤-

لم يجرؤ سلطان على إبلاغ صوفيا في ذلك اليوم أنه التقى بغسان على باب المبنى، لكنه بقي مشغول البال بالتفكير عن سبب زيارته لها، وعندما تذكّر كيف أن غسان انتبه للشبه الكبير بينه وبين الطفل عادت الشكوك تساوره، وقرّر حينها مواجهة صوفيا بعد عشر سنوات من الصمت على حادثة حملها..

صوفيا: أهلًا سلطان، ما الذي جاء بك في هذا الصباح الباكر.

سلطان: شوقي إليك.. وحنيني إلى تلك الليلة التي أحلم بها كل يوم واعيش على ذكراها.

صوفيا: كفاك عبثًا يا سلطان، كلانا نعلم أنها كانت لحظة ضعف

وغلطة لن تتكرر، ما زلت متزوجة من صديقك وشريكك في العمل، لذا كفاك عبثًا..

سلطان: لا أفهمك يا صوفيا، لماذا ما زلت معه مع أنني اعترفت لك بكل شيء، وأنت على دراية أن الرجل الذي تنامين بجواره كل يوم هو مجرم وقاتل؟ متى يحين الوقت لنصبح معًا ونعلن للناس الحقيقة الكاملة.

صوفيا: لدي أسبابي كما أن لديك أسبابك التي حملتك على التستُّر على هذه الجريمة، بل ومشاركتك لماجد المجرم كما تدّعي في العمل، كما أن الوقت لم يحِن بعد، تبقّى القليل من التجهيزات.

سلطان: هل تعتقدين أن ماجد يعلم أن موسى ابني أنا وليس ابنه؟

صوفيا: لا أعتقد ذلك، أنت تعلم أن ماجد رجلٌ عملي وهدفه أن يحافظ على سمعة عائلته العريقة بين الناس، دعنا من هذا الكلام الفارغ، أريد منك التوقيع على تفويض كامل لي كي أستطيع البدء بنقل ثروتك إلى مكان آمن، لأن الرقابة والتفتيش تحوم حول شركتكم، ويبدو أن هذه المرة سوف تكون حاسمة، لذا يجب أن تتجهّز لكي تكون نظيفًا على التمام..

سلطان: وماذا عن ماجد؟

صوفيا: سوف يقع، وحينها سأطالبه بالطلاق والمستحقات، لكن ليس قبل أن نضع جزءًا من ثروته بين يدينا، هل تفهم؟

ارتبك سلطان كثيرًا وتذكّر تفاصيل تلك الليلة التي باح بها عن تفاصيل مقتل حيان، والتي ادّعى أن ماجد هو الذي دسّ الحبوب في كأس حيان بدافع الغيرة لأنه كان مغرمًا بها، لذا بكت صوفيا كثيرًا وتألمت لأن ماجد خدعها أيام الجامعة واستغل ضعفها حتى تقرّب منها وتزوجها بعد أن عالج

إدمانه من المخدرات بمساعدتها، ثم بعد أن تزوجا بعامين اكتشفت بأنه عاقر ولا يستطيع الإنجاب نتيجة إدمانه السابق، ولم يتجرأ على الاعتراف بذلك، بل كان يقول بإنها هي التي لا تنجب، حتى جاءت تلك الليلة التي ضعفت أمام رغباتها بعد أن علمت بكل خداع ماجد وقامت بنزوتها مع سلطان بدافع الانتقام فقط، وكانت نتيجتها أن حملت بموسى ولم يستطع ماجد مواجهتها بعد ذلك، لكن ارتباك سلطان كان خوفًا من أن تكتشف صوفيا أنه كذب عليها أيضًا في تلك الليلة ليتقرب منها ويزرع الفتنة بينها وبين زوجها الذي حاول أن يبقى قريبًا منه بمشاركته في العمل ليبقى قريبًا من صوفيا..

لكن اكتفى سلطان بالقول:

ـ كما تشائين يا حبيبة قلبي، ما يهمني أن نكون معًا في نهاية المطاف، أنا، وأنت، وابننا موسى.

***

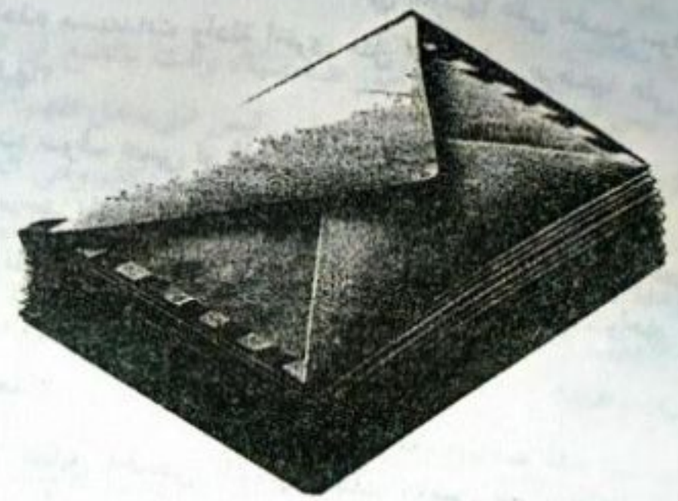

-١٥-

– صباح يوم الأربعاء كان ماجد بانتظاري في المقهى القريب من العيادة، وبعد أن تأخرت نصف ساعة قاصدًا، وجدت أنه ما زال بانتظاري، فقلت في نفسي إنه لا بد من أن الأمر خطير، لكن لنرَ من لديه الأخبار الخطيرة..

ماجد: كنت على وشك المغادرة.

غسان: ولمَ لمْ تغادر؟

نظر ماجد بهدوء إلى عينيه مباشرة وقال له:

– لأنني أريد أن تنهي ما أنت مقبل على فعله.

اقترب غسان من الطاولة أكثر ورمى بمغلّف أمام ماجد وقال له:

– افتحه إن كنت تجرؤ..

@ART_OF_BOOK

ماجد: أتعتقد أن لعبتك المفضلة التي تمارسها على الجميع سوف تنفع معي؟ أهذه مستندات وأدلة أخرى مثل تلك التي عرضتها على زوجي لتبتزني فيها؟

غسان: سوف تتمنى لو أنها كذلك يا صديقي القديم.

فتح ماجد المغلّف وأخرج الورقة التي بداخله بعد أن رأى ختم مختبر التحاليل للحموض النووية، وقرأ بصمت حتى انتهى منها، وأعاد الورقة إلى المغلّف ووضعها أمامي، وقال لي:

– ما هذا؟

غسان: تطابق الحمض النووي لابنك موسى مع سلطان شريكك النبيل، تم التحقُّق من ذلك عن طريق سيجار سلطان وشعرات أخذتها من رأس الولد عندما زرته في المدرسة.

أمسكني ماجد من يدي واقترب مني بحزم حتى بدأت أشتم رائحة أنفاسه: – وما شأنك أنت؟

انتبهت حينها إلى أن ماجد لم يتفاجأ، بل بدَا الأمر وكأنه مخطط له منذ البداية، لذا كانت ضربة موجعة لي، بل صدمة غيّرت مفاهيم القصة كلها، لكن عليَّ أن أتمالك نفسي الآن، فأجبته باستفزاز:

– هل تتقاسم أنت وشريكك حبيبة القلب صوفيا؟

وقف ماجد بغضب وقال:

– أقسم لك أنك إن تفوهت بكلمة أخرى من هذا القبيل سوف تلحق بأخيك حيان على الفور..

ثم التفت إلى نفسه أمام الحاضرين وعدل من هندامه وجلس وحاول القول بهدوء مصطنع:

– هذا ليس من شأنك، إنها أمور شخصية، وأنت بالطبع لن تتفوه بكلمة لأي مخلوق أنني على دراية بأن موسى ليس ابني، هل تفهم؟!

غسان: أتعلم أنك وكل أصدقائك لديكم سمة مشتركة، وهي التهديد بالقتل، وهذا يدينكم بكل سهولة، بهذا تكونون قد اعتدتم عليه بعد جريمتكم الأولى.. هل أنت فعلًا كنت مشاركًا في التحدي الأخير الذي قام به حيان وحميد؟

ماجد: نعم، هذا صحيح وما الضير في ذلك؟

تفاجأت أكثر من الوقاحة التي يتكلم بها ماجد وأردفت قائلًا:

– إذن أنت فعلًا من قتل حيان؟

ماجد: لم أفهم، كيف يكون ذلك؟! أعلم أنك طبيب ولست غبيًا!

غسان: أنت لم تتعاطَ المورفين معهم، وأنت تعلم أن اختلاط المورفين مع الكحول يسبب الموت، وبما أنك كنت المسؤول عن ملء الكؤوس التي وُضعت فبالتالي أنت من أرغمتهم على الكحول حينها، ومن يعلم؟ فربما تكون أنت من دسست الحبوب فيها أيضًا.

ماجد: هذا ليس صحيحًا على الإطلاق؛ لأنني أنا وحيان أنفقنا مبلغًا كبيرًا لنحضر هذه الحبوب، وبالتالي كنت أنا وحيان أول المتعاطين لها ثم بدأ الجميع بتجربتها ما عدا أسامة وسلطان اللذين لم يجرؤا على تعاطيها بل فضّلا تناول الكحول فقط، وهم من أشرفوا على ملء كؤوس جميع

التحديات التي قمنا بها.. هل كنت تعتقد أن كل أولئك الحمقى يستطيعون تحمل تكلفة المخدرات؟! ثم لماذا لم يمت أحد تلك الليلة سوى حيان مع أن الفالية تناولوا ما تناوله!

وقف ماجد ممسكًا المغلّف ليعلن انتهاء الجلسة قائلًا:

– ابتعد عني وعن ابني وعن صوفيا أيها الطبيب الغبي كي لا تكون نهايتك قريبة.

وتركني غارقًا في حيرتي بعد أن أعطاني خيوطًا أخرى تشتبك لتجعل من القصة أكثر تعقيدًا في رأسي.

عدت على الفور إلى عيادتي وتناولت ثلاثة أقراص مهدئة وكتبت الخيوط الجديدة التي حصلت عليها في دفتري وبدأت أفكر فيما قاله ماجد فوجدت أنه منطقي جدًا أن ماجد من كان يموّل شراء المخدرات، وحيان من كانت لديه مصادر تأمينها، ونتيجة تعاطي ماجد وإدمانه على ما يبدو أدى ذلك إلى إصابته بالعقم، وبالتالي سلطان دخل على الخط ليزرع الفتنه للتخلص من ماجد لأنه يملك المؤهلات التي كانت تحلم بها صوفيا للوصول إلى هدفها في أن تصبح قاضية، ثم المحامي العام في المدينة؛ فماجد لديه القدرة على تحقيق هذا الحلم وليس سلطان في ذاك الزمان.

لكن ما دور أسامة في تلك الليلة؟ وما الذي حصل في تلك الساعة اللعينة الأخيرة قبل اتصالهم بالإسعاف؟ ولماذا لم يمت أحد سوى حيان؟

يكاد رأسي ينفجر.. أنا بحاجة إلى الهدوء والنوم بعمق لأعيد ترتيب أفكاري وخطتي.. حقنة صغيرة.. خمسة مليغرام من المورفين كافية مع

الحبوب المهدئة ليقتلوا كل تلك الأفكار المتنازعة في رأسي.. كتبة مريحة.. اضواء خافته.. انخفاض في دقات القلب.. شعور بالانتشاء.. تراقص حبات الغبار التي عكستها أشعة الشمس وكأنها فراشات ذهبية تلمع وسط حقول التوليب الملوّنة.. يضيق مجال الرؤية بهدوء وصمت.. ظلام دامس..

***

-١٦-

نزل غسان من سيارة الأجرة بعيدًا عن باب المطار صباح يوم الخميس ومعه حقيبة صغيرة بحجم كف اليد ليقابل وائل الذي كان بانتظاره منذ الصباح الباكر بحماس لا مثيل له، فقال غسان ضاحكًا:

- ما كل هذه الحقائب يا وائل إنما زيارة عمرة سريعة لا أكثر، وإن احتجنا لشيء نستطيع شراءه من هناك..

وائل: لا تكن فظًا يا قابيل، هذه رحلتي الأولى خارج البلد لذا كان عليَّ الاستعداد جيدًا.

غسان: لا عليك، بإمكانك أن تضع حقيبتي الصغيرة بين أمتعتك وتذهب إلى حجرة التفتيش، تفضَّل، هذه تذكرتك، سوف أكون وراءك

لكنني بحاجة إلى أن أقضي حاجة سريعة في الحمام، نسيت أن أقول لك.

هل تعلم أن صديقنا عمار هو مسؤول أمني هنا في المطار؟

وائل: أبدًا، لم أسمع بهذا من قبل، كل ما فهمته أنه ضابط في السِّلك الأمني في البلد لا أكثر. ما علينا، اذهب الآن لقضاء حاجتك كي لا نتأخر على موعد الانطلاق.

انطلق وائل إلى بوابة المطار ومنها إلى حجرة التفتيش وهو يضع حقائبه راسمًا على وجهه ابتسامة تعبر عن الفرحة وهو يلوّح بتذكرته أمام شرطة التفتيش، وبعد أن قطع حاجز التفتيش الشخصي التف حوله ثلاثة من عناصر الأمن، وطلبوا منه أن يرافقهم إلى حجرة خاصة بعد أن فتشوه تفتيشًا دقيقًا، وُضع وائل في غرفة لا نوافذ لها، بل كرسي واحد وطاولة صغيرة وضوء أصفر يتدلّى من السقف يضيف رهبةً للأجواء، وبعد مَضي نصف ساعة بدأ وائل بضرب الباب وهو يصرخ: أين أنا؟! ما الذي يحدث هنا؟! هل من أحد هنا يستطيع الإجابة؟ أنا صديق الضابط عمار، أين الضابط عمار؟

بعد مرور ساعة كاملة من احتجاز وائل أُهكت قواه رعبًا وقلقًا، ثم فُتح الباب، ودخل عمار صديقه القديم وأغلق الباب خلفه بقوة وبدأ حديثه..

– ما الذي تحاول فعله هنا يا وائل؟

وائل: لا أعلم أنا مسافر إلى مكة لأداء العمرة مع قابيل، وعند حاجز التفتيش طلبوا مني أن أرافقهم إلى هذه الغرفة.. ما الذي يحدث؟ أنا لا أفهم!!

عمار: أين قابيل؟

وائل: ذهب ليقضي حاجة في الحمام بينما أنتهي من التفتيش..

صرخ عمار بعصبية وهو يضرب على الطاولة:

– مذ مق وأنت تعمل في تهريب المخدرات يا وائل؟! وبهذه الطريقة الغبية المفضوحة!

ارتبك وائل وشُلّ لسانه وأصبح عاجزًا عن الكلام، ثم وقف على قدميه وهو يمسح عرقه ويتمتم ليقول:

– مخدرات!! من أين لي بالمخدرات؟ أقسم لك أنني لم أقترب منها بعد تلك الليلة..

فُتح الباب وجاء أحد العناصر وأعطى عمار حقيبة يد صغيرة فامسكها ورماها في وجه وائل وقال له:

– هذه الحقيبة المليئة بحبوب المورفين، لمن؟

تفقد وائل الحقيبة ثم أبعدها عنه وقال وهو يرتجف:

– هذه لقابيل، هو وضعها معي عندما قال إنه سيذهب سريعًا إلى الحمام..

أمسك عمار الحقيبة وغادر على الفور وترك وائل يصرخ ويقول:

– هذه لقابيل، أنا ليس لي أي ذنب في هذا، عليك أن تصدقني يا عمار.. جلس وائل وظهره على الباب ورأسه بين ركبتيه، يبكي بحزن شديد على هذه الورطة التي وضعه بها غسان وبدأ يفكر بأنه سوف يمضي بقية حياته في السجن في قضية لا ذنب له فيها، بدأ يفكر بأطفاله وزوجته إن وصلهم الخبر، كيف ستتحول حياتهم إلى جحيم، وبدأ يضرب بيديه على وجهه، ثم تذكر أن الخبر سيصل إلى شيخه أيضًا والجميع سوف يتحدثون

في الأمر ويصفون وائل بأنه تاجر مخدرات رخيص باع دينيه وعائلته، والآن هو مُلقى في السجن مع المجرمين كما يستحق..

في هذه الأثناء قام عمار بمراجعة الكاميرات الموجودة في المطار، ولم يظهر فيها قابيل على الإطلاق، ثم عاد لمراجعة التذاكر فوجد أن الرحلة محجوزة لشخص واحد باسم وائل، ولا يوجد أي تذكرة أخرى باسم غسان، قاطع هذا المشهد دخول الضابط الأعلى رتبة إلى عمار، ليخلي الغرفة ويقول له بكل هدوء وحرص:

– هل تعلم أن هذه الحبوب المخدرة مصدرها أسامة؟ من أين جاءت إلى هذا المعتوه الذي يدّعي أنه صديقك؟ هذه الحبوب لها طريقتها في العبور من المطار نحن ننظمها، وليس بهذا الشكل الفوضوي المكشوف، عليك التستر على هذا الموضوع على الفور وإيجاد مخرج من هذا المأزق، وإلا فالتحقيقات سوف تكشف كل شيء، ونهايتنا سوف تكون وخيمة، هل تفهم يا عمار، ثم إنه يقول إنه صديقك، وبالتالي عليك أن تتجهز لتكون كبش الفداء إذا لم تقم بإيجاد حل سريع لهذه المصيبة..

غادر الضابط وعلامات الغضب والخوف بدت واضحةً على وجهه بعد أن جاءه اتصال قرر إكماله في الخارج..

صُدم عمار من صراحة ضابطه معه، وأن الأوراق باتت مكشوفة الآن أمام العناصر والضباط على أن الجميع متآمر على التجارة المنظمة للممنوعات، وكلهم مرتشون لهم يد فيها. شعر عمار بالخِسّة والوضاعة، لكنه استفاق بعد أن خطرت على ذهنه خطة سريعة للخروج من هذا المأزق قبل أن تعلق مشنقته على أنه متآمر مع وائل..

اتصل عمار بأسامة وشرح له الأمر، وطلب منه معرفة من اشترى هذه الحبوب، وأكد له ان رقابهم على المحك، وذهب مجددًا إلى وائل ليفهم القصة منذ البداية، وبعد أن علم أن قابيل من قال لوائل إنه يعمل هنا في المطار فهم على أنها حكاية مدبّرة من قِبل قابيل، فهزّ رأسه وقال لوائل: هل تعلم أن غباءك هذا من الممكن أن يؤدي بك إلى السجن المؤبد؟

اجابه وائل: اعلم ذلك جيدًا، لكنني أعدك بأنني لن أكون وحيدًا في هذه الغاوية، بل ساصطحب الجميع معي إليها، أنت تعلم أنني قادر على ذلك، لذا اعمل جهدك على أن أخرج من هذا المأزق الذي كان نتيجةً لأخطائكم في الماضي وجعل من قابيل حاقدًا عازمًا على الانتقام..

ارتعب عمار واحسّ أن الجميع متآمرون عليه ليوقعوه في الفخ، خاصة بعد أن فاحت رائحة ترقيته ليصبح المسؤول الأمني الأول على المطار.. استجمع قواه وسنوات خبرته في عالم الجريمة، وبينما كان يجهّز لخطة النجاة للجميع وصلته رسالة من أسامة تقول: قابيل..

جمع عمار كل العناصر الأمنية في المطار بموافقة الضابط المسؤول، واحضر وائل بعد أن شرح له تفاصيل الخطة التي هو مقبل عليها، وكانت ملاحظته الوحيدة لوائل ألا يتفوه بأي حرف على الإطلاق كي لا يكملان بقية حياتهما في السجن.. وبدأ الحديث..

الزملاء الكرام.. إننا كما تعلمون مقبلون على عام جديد، وبالتالي ترفيعات جديدة لبعض الزملاء المجتهدين على الأبواب، لذا قررنا أنا والضابط المسؤول عن المطار القيام باختبار صغير، لمعرفة من منكم يستحق الترفع في العام المقبل، إن هذا الشخص الذي أمامكم هو صديق

لي وطلبت منه أن يأتي بشكل عادي كأي مسافر، ويحمل معه حقيبة صغيرة فيها الحبوب المخدرة لنرى الثغرات في نظام التفتيش لدينا، وفي ذات الوقت نعلم إن كان هناك من تسوّل له نفسه بأن يقبض القليل من النقود لكي يبقى صامتًا فتعبر هذه الشحنة عن طريق مطارنا، ثم اتفقت معه على أن يصرخ باسمي عند دخوله إلى غرفة الحجز، وذلك كي تعلم العناصر التي رافقته بأنه يعرفني، ولعل أحدهم يلين ويخاف من أن له واسطة كبيرة فيتهاون ويساعده، لكن أستطيع القول وبكل صراحة إنكم جميعًا أثبتتم أنكم خير مثال عن الشرف والتمسك بالمبادئ والأمانة في هذه المهنة، التي هي بحاجة لأشخاص مثلكم للحفاظ على أمن البلد والمواطنين، لذا أطلب من الأشخاص الثلاثة الذين ألقوا القبض عليه أن يتقدموا إلى الأمام لتكريمهم أمام الجميع على أمانتهم، وأقدم لهم أوسمة الوفاء ليكونوا قدوة للجميع هنا، وعند مطلع العام المقبل ستتم ترقيتهم برتبة أعلى مما هم عليها اليوم..

تقدم رجال الأمن الثلاثة بفرحة كبيرة ليتقلّدوا الأوسمة ويعودوا إلى زملائهم وسط تصفيق وتصفير من غالبية الحضور..

والآن، شكرًا للجميع على حُسن انتباهكم، وأتمنى أن تكونوا على أهبة الاستعداد، لأن الكثير من الاختراقات الحقيقية من الممكن أن تواجهنا في الأيام المقبلة في فترة الأعياد، وهدفها زعزعة أمن بلادنا والعبث بأمن المواطنين الذين يثقون بنا نحن كحُماة لهم ولهذه البلاد العظيمة.. وتذكّروا دومًا أن باب الترفيعات والمكافآت مفتوح للجميع.. إلى عملكم الآن..

تململ بعض الموجودين من الشرفاء الذين لم يصدقوا هذا الاختبار المزعوم وطعنوا بنظراتهم مصداقية الضابط عمار الذي كان بنظرهم مثالًا

للضابط النزيه، ومنهم من حاول قذف بعض التلميحات الثقيلة على الأسماع، لكن ما باليد حيلة، فالكل بات يعلم أن عمار سيصبح الضابط الأعلى رتبة بينهم، لذا انصرف الجميع إلى عملهم بعد الأداء الأسطوري الذي أشاد به الضابط المسؤول لعمار، وأخبره أنه بات يعلم أن المطار سيكون في أيد أمينة وغمزه بطريقة ساخرة توحي بكل أشكال القذارة، التي اشمأزّ منها عمار وجعلت منه حاقدًا أكثر على أسامة وأعوانه..

طلب من وائل أن يعود إلى بيته ولا يحدّث أي شخص عما حصل اليوم، وأن ينساه تمامًا، وفي حال عاد قابيل للتواصل معه يقوم بإبلاغه على الفور.. وأرسل رسالة إلى أسامة يقول فيها: تجاوزنا الموضوع بمعجزة

في المطار، ماذا عن قابيل؟

وصله الرد من أسامة: اقتربت نهايته..

***

-١٧-

محكمة..

القضية رقم ٤٣٠ السفاح الذي قتل عائلته..

قضية رأي عام..

النيابة العامة: سيدي القاضي، إن الشخص الذي أمامنا هو مثالٌ للفوضى والدمار للمجتمع عامةً، وللشباب خاصةً، وبناء على الأدلة الموجّهة ضده واستماعنا إلى الشهود الذين عانوا من أذى المتهم والقبض عليه متلبّسًا، أطلب منكم الحكم على المتهم بأقسى أنواع العقوبات أقلّها الإعدام شنقًا حتى الموت لتأخذ العدالة مجراها ويتم القصاص من الجاني..

محامي الدفاع: سيدي القاضي، اسمح لي أن أستدعي الطبيب النفسي المشرف على المتهم للشهادة، الطبيب غسان..

النيابة العامة: أعترض سيدي القاضي، لم يتم الإبلاغ عن حضور الشاهد مسبقًا..

تقدّم محامي الدفاع واضعًا مغلّفًا فيه أدلة جديدة تغيّر من مسار القضية، وبعد اطلاع القاضي عليها وافق على استدعاء الشاهد الأخير.. الدكتور غسان يتفضّل للشهادة..

تقدم الدكتور غسان وجلس بعد أن رمق المستشارة التي تمثل النيابة العامة المترافعة ضد المتهم بنظرة لا مبالاة..

صعقت صوفيا المتمثلة بمستشارة النيابة العامة بصفتها قاضية من المشهد الذي يحصل أمامها، لأنها لم تكن جاهزة لمثل هذه المفاجأة التي من الممكن أن تغير مسار القضية التي عملت عليها لسنة كاملة، معتقدةً أن النصر سيكون حليفها، فهي لم تعتد على الخسارة، وكسب مثل هذه القضية مهم جدًا لمستقبلها الذي تسعى فيه أن تكون المحامي العام الأول بكسبها لقضية مثيرة للجدل لدى الرأي العام.

محامي الدفاع: دكتور غسان، لقد كنت الطبيب المشرف على الحالة النفسية للمتهم، وتقريرك النهائي ينص على أن المتهم لديه حالة اضطراب ثنائي القطب شديدة نتيجة لتعاطيه المخدرات وإدمانه على العقاقير المهلوسة التي من شأنها أن تسبب على المدى الطويل هذا النوع من الاضطرابات.. هل من الممكن أن تشرح لنا قليلًا عن هذه الحالة؟

الشاهد: المتهم هو ضحية تعاطي العقاقير المهلوسة التي بعد فترة من

إدمانها تسبب اضطرابًا ثنائي القطب، والذي يؤثر بشكل خاص على الفص الجبهي الأيمن الذي يلعب دورًا مهمًا في التحكم بالمزاج والانفعالات واتخاذ القرارات، وهو مرتبط بوظائف تنفيذية مهمة من ضمنها التحكم بالاندفاعات، وعند تعرُّض المريض لإحدى نوبات المرض وهي الهلوسة الشديدة التي تخلق حالة من الأوهام داخل اللاوعي لديه، وعلى أساسها يشكّل الدماغ آلية دفاعية باختلاقه لشخصية أخرى وحياة أخرى غير شخصية وحياة المتهم الحقيقية، ليظهر ما بداخله من صراعات إلى العالم الخارجي الذي هو يعيش به، وبالتالي تترجم انعكاسات هذه الشخصية المختلقة غير الواعية على شكل تصرفات متهورة وغير مدروسة، مما يؤدي إلى الانخراط في سلوكيات غير مسؤولة، وهذه الجرائم التي نراها أمامنا هي ليست من شخصية المتهم الأصلية، بل هي من الشخصية الدفاعية التي كوّنها الدماغ نتيجة الهلوسات والأوهام، وهذه طبعًا من الحالات النادرة، لأن المتهم لديه عوامل وراثية ساعدت على تفاقم الاضطراب وتحوّله إلى ما يشبه الانفصام، لكن الاختلاف هنا أن المريض يكون خارج عن السيطرة فقط أثناء تعرُّضه إلى نوبات الهلوسة الشديدة، وهي نفسها التي تصيب المتهم من وقت إلى آخر.

محامي الدفاع: هل لنا أن نعلم كيف علمت ذلك؟ بصياغة أخرى للسؤال، ما الأدلة التي أثبتت ذلك دكتور غسان؟

الشاهد: خلال الشهور الثلاثة الماضية قمنا بإجراء أكثر من سبعة اختبارات عن طريق حقن المتهم بذات العقار المهلوس الذي كان يتعاطاه لدراسة تأثير المادة على الدماغ، وبعد سريان المفعول لاحظنا أن المتهم يدخل في عالمه الخاص جرّاء النوبات المتقطِّعة، ويتحوّل إلى شخص

عنيف هجومي غير مدرك، ويصرخ باسم آخر غير اسمه، وعند مناداته باسمه وتذكيره بماضيه يتعرض لانتكاسة بعقله الباطن ويدخل بحالة عدم القبول، وبتحريض من الفص الأيمن الذي تتعطل وظائفه يترجم أفعال هذه الانتكاسة بإسكات الأصوات التي تثير هذا التضارب في عقله بشتى الوسائل، وهو غير مدرك تمامًا للنتائج، وهنا يدخل المريض في حالة فقدان الأهلية المؤقتة، ويهاجم الأشخاص الذين يضغطون عليه على استرجاع شخصيته الأصلية بطريقة وحشية، كما حصل في الجرائم الخمس التي ارتكبها، ومن ثمّ عند حقنه بالعقار المضاد عادت له شخصيته الأصلية الهادئة التي لا تتذكّر أي شيء من الذي حصل عندما كان خارج الوعي، لذا جميع الجرائم التي ارتُكبت كان المتهم يلعب بها دور الشخصية المريضة الفاقدة للأهلية المؤقتة التي من شأنها أن تتحوّل إلى دائمة إذا لم يتلقَّ العلاج اللازم..

محامي الدفاع: أي أن المتهم كان فاقدًا للأهلية أثناء ارتكابه للجرائم، ويصنَّف على أنه مريض اضطراب ثنائي القطب شديد، ويجب أن يحوَّل إلى مستشفى للأمراض العقلية لمراقبة حالته عن كثب وإخضاعه للعلاج النفسي الذي يتناسب مع حالته، أهذا ما تحاول أن تقوله دكتور غسان؟

الشاهد: نعم، تمامًا..

محامي الدفاع: شكرًا لك سيدي القاضي، إلى هنا انتهت أسئلتي.

القاضي: فليتقدم مستشار النيابة العامة لاستجواب الشاهد..

تقدّمت صوفيا وهي على دراية أن الأدلة الطبية التي قُدِّمت على وشك أن تنهي قضيتها، لكن كبرياءها لم يسمح لها بأن تقف وقفة المتفرج

أمام انهيار القضية الأكثر أهمية في مسيرتها، لذا خطرت على بالها فكرة اللعب على وتر آخر، وهو الإنسانية..

المستشارة صوفيا: دكتور غسان، قلت سابقًا إنكم أجريتم أكثر من سبعة اختبارات على المتهم.. هزَّ رأسه موافقًا، فأكملت.. هل لي بسؤال؟ منذ متى ونحن في هذه الدولة نقوم بالتجارب على البشر؟

المحامي العام: أعترض سيدي القاضي، السؤال خارج عن موضوع الجلسة..

قاطعته صوفيا: سيدي القاضي، للسؤال تتمة، وهو على ارتباط كامل بالقضية..

القاضي: اعتراضك مرفوض فليتفضل الشاهد بالإجابة..

الشاهد: يوجد خطأ في تركيب هذا السؤال، واختلاف في المفاهيم لبعض المصطلحات، قلت إننا أجرينا اختبارات طبية وليس تجارب علمية، ومثل هذه الاختبارات الطبية يتم التعامل معها بحذر شديد، فالمتهم الذي لديكم يعامل عندنا على أنه مريض، والمريض عليه أن يخضع لاختبارات طبية لتحديد مدى كفاءته العقلية وكيفية تأثُّره بالعقاقير التي كان مدمنًا عليها، ثم إن الإجراءات الطبية التي استُخدمت لدراسة أهليته مصرح بها في بلدنا، وتمت الاختبارات بناء على تقديم المحامي العام التماسًا لدراسة أهلية المتهم، لكن على ما يبدو أنكِ لم تأخذي ذلك بعين الاعتبار..

المستشارة: بناءً على ما سمعناه وفهمناه منك دكتور غسان، تقول إن العقار الذي كان يستخدمه المتهم لينتشي به كان هو المسبب الأساسي لفقدان المتهم لأهليته وتصرفه بوحشية مع أمه وأبيه وإخوته الثلاثة الصغار

الذين لم تتجاوز أعمارهم العاشرة، وتهشيم رؤوسهم بالمطرقة الحديدية حتى اختلط دماغهم بالدماء وأصبحت الجثث بلا ملامح، وحتى بلا رؤوس حتى أننا لم نستطع التمييز بين جثث الأطفال المهشمة رؤوسهم..

الشاهد: سأعيد الصياغة لك، العقار الذي كان يستخدمه المريض لينتشي به، أدى بالاستخدام الطويل لحدوث مرض نفسي خطير ونادر، وتداعيات هذا المرض كانت تلك الجرائم البشعة التي قمت بذكرها للتو، لأن المريض أو ما تسمونه المتهم لم يحصل على الرعاية الطبية اللازمة عندما كان بأمسِّ الحاجة إليها..

المستشارة: سيدي القاضي، إذا اعتمدنا على هذا المبدأ نستطيع القول بأنه من الممكن أن نواجه في هذه البلدة سلسلة من الجرائم المرتكبة من مدمنين أو متعاطين تحت غطاء طبي يوفره أمثال الدكتور غسان..

المحامي العام: أعترض سيدي القاضي، يبدو أن الأمور اختلطت على المستشارة، نحن لم نطالب بالإفراج عن المتهم، بل طالبنا بتحويله إلى مستشفى الأمراض العقلية ليتلقّى العلاج المناسب لحالته، لأنه فاقد للأهلية وأمثاله لا يحاسبهم القانون كما يحاسب الشخص الطبيعي أو المجرم مع سبق الإصرار..

القاضي: اعتراضك مقبول.. هل لديك أي أسئلة أخرى للشاهد؟

المستشارة: نعم، سؤال أخير.. دكتور غسان، ما رأيك إن قلت لك إنه إن عاد بنا الزمن إلى الجريمة البشرية الأولى، لقلت لك إنني سوف أقف ضد قابيل لأنه مجرم ومعتدٍ ويجب أن ينال عقابه بأن يُشنق حتى الموت لتأخذ العدالة مجراها ويأخذ كل ذي حق حقه..

الشاهد غسان: سأقول لك إن قابيل بريء، لأنه كان فاقدًا للأهلية أيضًا بفعل تأثير وسوسة الشيطان له التي هي أشد من العقاقير تأثيرًا على النفس البشرية، وبالتالي هو ضحية وقعت ضمن مكائد الشيطان في ذلك العصر وكان بحاجة للعلاج النفسي ليتخلص من مكائد الشيطان، ويحصل على فرصة ثانية في الحياة وليس السجن أو القتل، ويجب أن أنوّه على أنه من الضروري التمييز بين المريض وبين المجرم عن سبق إصرار وترصُّد، وبهذا تتحقق العدالة، وهنا تكمن الإنسانية..

أنا الشياطين في هذا العصر، مصنّعو المخدرات ومروّجوها، هم المجرمون الحقيقيون، ومثل هؤلاء يجب أن يحاسبوا وتُعلّق مشانقهم في الساحات العامة، فإذا كان دافعك حقًا إحقاق العدل في المجتمع فيجب محاسبة الشجرة الفاسدة واقتصاصها من جذورها، لا إضاعة الوقت بالثمار الناجمة عنها.

المستشارة: لا مزيد من الأسئلة.

القاضي: بناءً على الأدلة والجلسات السابقة، قررت المحكمة حضوريًا تحويل المتهم إلى مستشفى الأمراض العقلية للعلاج لمدة ستة أشهر باعتباره فاقدًا للأهلية بشكل مؤقت، وعليه يؤجل البت النهائي بالتهم الموجهة إليه والحق العام للقضية إلى ذلك الحين..

رُفعت الجلسة.

***

١٠ مليجرام

-١٨-

– مساء الخير دكتور غسان، معك الدكتور مارك زميلك من المستشفى النفسي الدولي في ميونخ ألمانيا.

غسان: أهلًا دكتور مارك، تحياتي لك، كيف حالك؟

مارك: بخير يا صديقي، أتصل بك كي أبلغك بأنك بعد قليل سوف تتلقى دعوة للحضور إلى ميونخ والإشراف على حالة مهمة تقع تحت إشرافي وأتمنى منك ألا تتجاهل الدعوة، لأن الموضوع مهم جدًا وهي حالة مهمة لك على الصعيد المهني والشخصي أيضًا..

غسان: لكن لديّ التزامات مهمة هنا في بلدي ولا أستطيع التغيب عنها..

@ART_OF_BOOK

مارك: توقعت ذلك، لذا اتصلت بك لأؤكد لك أنها مسألة شخصية بالنسبة لك، إنها ميرا، تعاني من اضطراب كورساكوف، وذاكرتها متوقفة عندك، لذا من الواجب علينا استدعاؤك، خاصةً أنك خبير بمثل هذه الاضطرابات..

غسان: مَن!؟ ماذا قلت مارك؟

مارك: أقول لك إنها ميرا صديقتك..

غسان: سآتي على الفور..

مارك: انتظر لتصلك الدعوة دكتور غسان كي لا أتهم بتسريب معلومات المرضى. تفحّص بريدك الإلكتروني يوميًا وتذكّر أنك لا تعلم شيئًا عن الحالة أو المريض.. أراك لاحقًا..

أغلقتُ المكالمة وشحب وجهي كشحوب الموتى وبدأت أضرب بكفيّ على وجهي وأبكي بحرقة وأتكلم مع نفسي كالمجنون.

كورساكوف!! لا يا إلهي، ليست ميرا، إنها لا تستحق مثل هذه المعاناة! ما الذي حصل معك يا ميرا حتى أُصبت بمثل هذا الاضطراب الخبيث؟ جلست خلف طاولة المكتب وبدأت أفكر لأحاول حصر احتمالات إصابتها بالمرض ودوّنت في دفتري..

كورساكوف.. اضطراب عصبي بسبب نقص فيتامين ب١ الثيامين..

المسبب الرئيسي الأول.. إدمان كحول مزمن، لكنها لم تكن تشرب الكثير من الكحول..

سوء التغذية، لا أعتقد ذلك، كان غذاؤها منتظمًا وتؤدي التمارين الرياضية بانتظام..

أمراض الكبد، كلها مرتبطة بإدمان الكحول، لا أرجّح ذلك..

الإيدز، لا لا، لم تكن من هذا النوع، هي أساسًا لم تكن مهتمة بالجنس لأنها كانت غارقة في عالم الدراسات النفسية..

فقدان الوزن، هذا الخيار مستحيل لأنها كانت رشيقة..

إذن، ما الذي حصل؟! من أين لها مثل هذا الشر؟!

من المستحيل أن تكون أصيبت به أثناء إقامتها معي، كنت سألاحظ الأعراض المرافقة لمثل هكذا اضطراب..

ارتباك، تغيرات في الشخصية، فقدان المهارات الاجتماعية، أوهام وهلوسات، عجز في الذاكرة، ذكريات ملفّقة، الحشو الخاطئ أو ما يُعرف بالذكريات الكاذبة وذلك لملء الفجوات في الذاكرة بعد إصابتها بالتلف..

رميت القلم فوق الدفتر، حاولت الضغط على صدغي لمحاولة الاستنجاد بأي معلومة أخرى في دماغي قد تساعدني..

مستحيل! هناك شيء ما خاطئ.. بدأت بتفقُّد البريد الإلكتروني واعاين كل الإيميلات الواردة بدقة، لعلّي أجد إيميل الدعوة فأجيب عليه على الفور، لكن ما من شيء قد ظهر بعد، ومع ذلك قمت بتجهيز حقيبتي للمغادرة وحاولت أن أرى مواعيد رحلات الطيران القريبة إلى ميونخ لكي أكون مستعدًا للانطلاق في أقرب فرصة متاحة..

تناولت قرصين من المهدئ المفضل عندي الذي اعتدت أن أتناوله في مثل هذه الظروف الحالكة، وفي ذات الوقت كنت بحاجة إلى التفكير بوضوح لوضع الاحتمالات التي من شأنها أن توصّلني إلى تقييم مبدئي لحالة ميرا قبل الوصول إليها.. وبعد أن سرى مفعول المهدئ قليلاً عُدت إلى رشدي وإلى التفكير بمنطقية أكثر ببعض الأمور العالقة قبل مغادرتي، فمن الممكن أن تطول الرحلة، لذا قررت وضع خطة انتقامي في حالة التوقف المؤقت بعدما نظرت إلى تاريخ اليوم، ووجدت أن المتبقي حوالي شهر تقريبًا على نهاية العام، لذا استدعيت السكرتيرة في العيادة، وقلت لها إنني بحاجة إلى فترة من الراحة، لذا سأسافر إلى ألمانيا لمدة شهر على الأغلب، وأعود في الشهر الأول من بداية العام لإتمام ما عملنا عليه طوال العام، لذا أرجو منك تأجيل كل المواعيد في العيادة هذا الشهر، ثم إبلاغ وزارة التربية بأن تقرير الدراسة الذي قمت به في المدارس العامة سوف يصلهم بعد عطلة رأس السنة، وبالنسبة للتقرير النهائي للمحكمة، فهو جاهز، أرسليه إليهم فور طلبهم له، وهذا العقد الذي بين يديك سلميه للمهندس سلطان حال قدومه، لكي يباشر بموضوع العيادة الجديدة، ولا تنسي أن تضعي لافته كبيرة تفيد بأن العيادة سوف تنتقل بسبب التوسعة، وأضيفي التفاصيل المناسبة وأبقيني على اطلاع بكل المستجدات..

غادرت السكرتيرة..

اتجهت إلى المخبأ السري الذي أضع فيه تفاصيل خططي الانتقامية وكل المستجدات والاستنتاجات التي توصلت إليها، وتأكدت من أن كل شيء في مكانه، ثم أغلقت الخزانة وواسيت نفسي قائلًا: لقد انتظرت عشرين

عامًا لأصل إلى هذه اللحظة، ولا بأس بأن أنتظر شهرًا آخر، سوف أذهب لأنقذ ميرا الآن وأعود لأدمر هؤلاء الأوغاد في وقت لاحق..

لم أنم تلك الليلة وأنا أراقب البريد الإلكتروني إلى أن حلّ الصباح ووصلني الإشعار المنتظر لأجيب عليه على الفور بأنني قادم بأقرب وقت يمكن ومنها إلى المطار مباشرةً..

***

الحالة رقم ١٠٠١

المريضة ميرا ٣٩ عام (سرّي للغاية)

وصلت إلينا المريضة في بداية العام الحالي، بعد أن تم تحويلها من المستشفى النفسي العلاجي في برلين الذي تعالجت فيه لمدة خمس سنوات، لكن دون تقدُّم أو نتائج تُذكر.

توصيف الحالة: تدهور في وظائف الدماغ، ذكريات ملفّقة لا أصل لها وتدهور معرفي.

مارك: قمت أنا بنفسي بالإشراف عليها طوال هذه السنة بعد أن

تعرفت عليها على أنها كانت زميلة لنا في كلية الطب النفسي هنا في ميونخ، ومع اقترابي منها بشكل واضح لفهم قصتها بدأت بطرح اسمك على الدوام دكتور غسان، فعلى ما يبدو أن ذاكرتها توقفت عند العام الأخير من الكلية، وبعدها ألغيت كل الذكريات التي تلتها، وحاولت مرارًا تجديد ذاكرتها بالمعلومات التي وردتنا عن قصة حياتها بعد ذلك، لكن بلا فائدة. بعد دقيقتين أو ثلاث على الأكثر وتعود إلى ما كانت عليه..

غسان: هل بإمكاني الاطلاع على ما وردكم عن قصة حياتها بعد التخرج؟

مارك: بالتأكيد، لكن هذا الملف ليس كبيرًا كما تعتقد، على ما يبدو أنه سِري للغاية، سوف تفهم ذلك بعد أن تقرأه، ومن الأفضل أن تقرأه بتمعن قبل أن تقابل ميرا..

انضمت الطبيبة ميرا إلى مركز البحوث العلمية السرية في الدولة لتطوير عقار جديد، على ما يبدو أن ميرا أدمنت المشروبات الكحولية نتيجة الضغط في عملها، وبالتالي بعد فترة من ملاحظة إدمانها تم عزلها عن المجموعة الطبية التي أُنشئت لتطوير العقاقير السرية، وتفاقمت أزمتها مع الكحول حتى تم إعلان إصابتها بمتلازمة كورساكوف، وتم تحويلها كمريضة إلى مستشفى برلين لتلقّي العلاج المناسب..

– حاولت جاهدًا أن أتمالك أعصابي بعد أن قرأت هذا التقرير المقتضب عن حياة إنسان لمدة خمس عشرة عامًا، ما الذنب الذي اقترفته لتلخّص حياتها في بضعة سطور وكلمات سطحية لا قيمة لها، نظرت إلى مارك وعلمت حينها أنه متواطئ في هذه الأحداث التي لا أعلم شيئًا عنها

سوى أنها سِرية، وبعد قراءتي لهذا التقرير الخالي من الإنسانية فهمت أن خطورة المهمة التي كانت ميرا مكلّفة بها عالية جدًا وتفوق كل التخيُّلات..

أعدت الورقة إلى مارك وقلت له بتأثُّر لا مثيل له:

– لا بد أن أقابل ميرا..

***

١٠ مليغرام

-٢٠-

- صباح الخير حبيبتي ميرا..

غيّرت ميرا من جلستها على الفور ونظرت إليّ بنظرات غمرتها الحب، وقالت: صباح الخير يا غسان.. انتظرتك طويلًا لنحتفل معًا، ثم غفوت بعد أن فقدت الأمل بعودتك، أين كنت؟

غسان: هل تعلمين في أي يوم نحن يا حبيبتي؟

ميرا: بالطبع، إنه اليوم الذي يلي تخرجنا من الكلية، لكن لماذا تبدو بهذا الشكل وكأنك كبرت عشرين عامًا في ليلة واحدة؟

غسان: لأنني أهملت نفسي ونسيت أن أحلق ذقني طوال فترة غيابك..

ميرا: غيابي! لكنني كنت هنا حاضرة طوال الوقت، أنت الذي اختفيت البارحة!

غسان: نعم، ذهبت لأشتري هدية لكِ، تفضلي..

فتحت ميرا هديتها بعد أن ارتسمت ضحكة بريئة على وجهها الذي بدَا عليه ظلم السنين كلها التي غابت عني فيها، فوجدت بداخلها مرآة صغيرة لها يد مذهبة، عندما أمعنت النظر فيها وجدت نفسها على غير هيئة، لم تعد تلك الشابة الصغيرة الطموحة والحالمة، هَلعت كثيرًا وصرخت بعد أن رمت بالمرآة على الأرض لتتحطم، وقالت:

– ما هذا؟ ما الذي يحصل؟! أين أنا؟! من أنت؟! هل أنا مريضة؟! أنت طبيب؟!

وبدأت ترتجف وملامح الارتباك غيَّرت من شكل تصرفاتها..

– أشعلتُ جهازي المحمول ووضعت لها أغنيتها المفضلة التي اعتادت على سماعها، وقلت لها:

– لا عليك يا حبيبتي، اهدئي الآن واستمعي إلى أغنيتك المفضلة.

بعد دقيقتين هدأت ميرا، انسجمت مع أغنيتها وبدأت تتراقص مع الألحان، ثم اقتربت مني ووضعت ورقة في جيبي وقالت لي هامسةً:

– اقرأها وحدك..

ثم تركتني وهي تتمايل بتناغم مع الألحان لتصرخ وتقول:

– لا أعلم من أنت، ولكن شكلك يبدو مألوفًا، على جميع الأحوال انتهت جلستنا اليوم دكتور إكس..

مارك: ما رأيك دكتور غسان؟

غسان: إنها متلازمة كورساكوف بلا شك وبمراحل متقدمة..

مارك: الدماغ متضرر بنسبة ٨٠٪ دكتور غسان، ومحاولتنا لإنقاذ ما تبقى هي محاولة يائسة، وأنت تعلم أن مثل هذه الحالات الشفاء فيها نادر إذا كان الدماغ متضرر بنسبة ١٥٪، فما بالك عن النسبة الكبيرة التي تتكلم عنها.

غسان: ما العقاقير التي تتناولها الآن؟

مارك: الثيامين بالطبع أصبح جزءًا من حياتها ولا يمكن الاستغناء عنه، وحين جاءت إلى هنا كانت تتعرض لنوبات هيستيرية مخيفة بعد أن تغفو بقليل، إذ يبدو أن الكوابيس تطاردها أثناء نومها، لذا وصفت لها جرعات مخففة من المورفين لتساعدها على النوم بعمق ونتجنب مثل هذه النوبات التي تشكِّل خطرًا على حياتها..

غسان: هل تتذكر ماذا كانت تقول أثناء تعرُّضها للنوبات؟

مارك: الكثير من الكلام، لكنه ليس واضحًا، وكأنه بلغة غريبة غير الألمانية، ثم جملة واحدة كانت تكررها على الدوام بالألمانية (لا تشربوا من المياه القاتلة).

– سجلتُ هذه الملاحظة في دفتري الصغير الذي أدوِّن فيه الملاحظات المهمة، أو ما أعتبره زلات لسان حقيقية، وهممت بوضع الدفتر في جيبي ثم تذكَّرت أمر الورقة التي وضعتها ميرا في ذات الجيب بعد أن تحسَّستُها، لذا

أخذت نسخة من التقارير والتحاليل التي أجريت لها منذ قدومها إلى هنا المستشفى، ثم اعتذرت من الدكتور مارك بأنني سوف أقابل الممرضة التي أشرفت على رعاية ميرا لأحصل على بعض الإجابات التي قد تساعدنا في تقييم الحالة بطريقة احترافية.

حاولت جاهدًا في تلك الأثناء الحصول على عنوان أو اسم الممرضة بعد أن علمت أنها انتقلت من المستشفى قبل يومين من حضوري، لكن بلا فائدة، لم يعلم عنها أحد أي شيء سوى أنها لم تعد تعمل هنا، أو هذا ما أفصحوا عنه، أو هذا ما كان مصرَّحٌ لهم أن يفصحوا عنه كما فهمت..

عدت بعدها إلى شقتي الصغيرة التي استأجرتها بالقرب من المشفى ووضعت كل التقارير التي حصلت عليها، ورميت بدفتري على الطاولة لتسقط منه قصاصة الورق التي حصلت عليها من ميرا، كان مكتوب على الوجه الأول منها (لا تثق بأحد.. كلهم مجرمون) وعلى الوجه الآخر (تجارب ش أ م)..

لم أفهم شيئًا من هذه العبارات، لكنني وضعت عبارة تجارب ش أ م على الإنترنت ولم أجد أي شيء بهذا الخصوص، شعرت بالإحباط والحزن، تناولت أقراصي المهدئة وبدأت أقلِّب بيأس بين الأوراق المتوزعة بشكل عشوائي على الطاولة وأنا أتمتم بعبثية.. إذا كانت ذاكرة ميرا عالقة في مرحلة الجامعة وانتهائنا منها، فمن هم المجرمون الذين تشير إليهم؟ وما العمل السِّري الذي طُلب منها في البحوث العلمية الذي جعلها تهرب في تلك الليلة دون أن تترك أي أثر خلفها؟!

***

-٢١-

- صباح الخير حبيبتي ميرا..

غيَّرت ميرا من جلستها على الفور ونظرت إليَّ بنظرات غمرتها الحب وقالت: صباح الخير يا غسان.. انتظرتك طويلًا لنحتفل معًا، ثم غفوت بعد أن فقدت الأمل بعودتك، أين كنت؟

علمت حينها أن الحكاية سوف تتكرَّر في كل مرة التقيها، لذا اقتربت منها بعد أن وضعت معزوفة لبيتهوفن وقلت لها:

- هلا تفضَّلتِ بالرقص معي يا أميرتي؟

رفعت يدها بخجل بعد أن توردت خدودها وقالت:

- بالطبع.

ووقفت ثم اقترب من أذني لتهمس فيها:

– هل غفوت جيدًا البارحة يا قابيل..

وأدارت رأسها ناح زوايا الغرفة..

أبعدتها عني باستغراب شديد ممسكًا يديها، وفهمت من نظراتها أن الغرفة مليئة بكاميرات المراقبة في كل الزوايا التي من المفترض عدم وجودها في غرف المرضى، ثم تمايلت مع الألحان لأهمس في أذنها: لم أفهم رسالتك البارحة.

ابتسمت وقالت بصوت مسموع وهي تتمايل: اشتقت إليك يا غسان، بأي فرعٍ سنتخصّص الآن بعد تخرّجنا من الكلية؟

أجبتها بصوت مسموع لأجاري الحدث: عقاقير يا حبيبتي.. عقاقير..

ضحكت ميرا ووضعت في يدي قصاصة ورق صغيرة وغمزتني لتهمس في أذني مجددًا:

– (الدارك ويب).

وقامت بالالتفاف بين ذراعي لتنحني إلى الخلف مع الإيقاع، ثم تعود لتهمس مجددًا:

– هل انتهيت من انتقامك يا قابيل؟

نظرت إليها بارتباك والعرق بات يتصبّب مني من كل حدب وصوب، تجمدت حركتي ونظرات الدهشة باتت واضحة على ملامحي إلى أن انتهت الأغنية، وبدأت ميرا بالتصفيق حتى انتابها الذعر مرة أخرى..

– من أنت؟! أين أنا؟! هل أنت طبيب؟! شكلك يبدو مألوفًا! على جميع الأحوال انتهت جلستنا اليوم دكتور إكس..

غادرت الغرفة وبيدي قصاصة الورق قابضًا عليها بقوة، كان مارك بانتظاري ليقول لي: هل فهمت شيئًا دكتور غسان؟

غسان: لا، أبدًا، يبدو أن الارتباك العقلي مستحوذ على أفكارها، ففي تضع ذكريات قديمة لها معي على أنني غسان عند تحفيز ذاكرتها بالأشياء التي كانت تحبها في الماضي، وما إن ينتهي التحفيز حتى يظهر عليها التدهور المعرفي، ويختلط الأمر عليها لتراني كطبيب يقيّم حالتها.. ما رأيك أنت؟

مارك: أقول إنها مع الأسف تعيش في عالم الأوهام والذكريات المختلطة التي رسمتها هي في دماغها وملأت ذاكرتها بالكثير من القصص المختلقة، وتحفيز الذاكرة ينفع لمدة دقائق ثم تعود إلى وضعها الذي لا أمل منه..

غسان: في مثل هذه الحالة دكتور مارك يفضّل للمريض أن يخرج من المشفى ليتعالج في المنزل لأنه يحتاج الكثير من الدعم الاجتماعي، وأنا أستطيع تأمين ممرضة لها ورعايتها على أكمل وجه، وفي ذات الوقت تقديم العلاج والتحفيز المنتظم للذاكرة حتى تحتفظ بما تبقّى منها..

مارك: الموضوع يتطلّب الكثير من الإجراءات دكتور غسان، لكن سوف أناقش مع مدير المشفى بعد يومين أثناء اجتماعنا لنرى الأفضل لصحة المريضة، لكن تذكّر جيدًا أنه في حال الموافقة سوف تكون تحت مسؤوليتك القانونية والطبية.. صحيح تذكّرت، ما قصة الدكتور إكس؟

تلعثمت وبدأت بمسح تعرُّقي الذي بات واضحًا على جبيني بيدين مرتعشتين وأنا أتذكر لعبة الدكتور إكس التي اخترعتها ميرا عندما كنت مريضًا، بل مدمنًا بعدما سمعت خبر وفاة والدي في عامي الثاني في الكلية

الطبية، وكان الدكتور إكس شخصية وهمية، لكنها خارقة تساعد جميع المرضى النفسيين في التعبير عن ذواتهم بأريحية تامة دون إصدار أحكام، ليصل إلى النزعات الإجرامية أو الانتقامية التي تنتاب الإنسان وتجعله يبوح بأسوأ عمل انتقامي فكّر فيه لتتم مناقشته بعد صحوة المريض، ليرى كم كانت أفكاره لا إنسانية وغير إصلاحية، ليتم بعدها زرع أفكار إيجابية عوضًا عن الانتقام والقتل، ومنها يتطرّق الدكتور إكس إلى الأفكار الإصلاحية حتى يتم الشفاء التام، وكانت ميرا تلعب معي كل ليلة لعبة الدكتور إكس حتى انتهيت من إدماني وتناسيت قضية انتقامي من قتلة حيان..

رددت على مارك بارتباك، لا أعلم ماذا تقصد بالدكتور إكس، لا بد أنه شخصية وهمية مختلقة من عقلها الذي امتلأ بالحشو الخاطئ.. بجميع الأحوال أتمنى منكم أن تتم إجراءات الخروج بسرعة لكي أبدأ برحلة العلاج مبكرًا لعلنا نحافظ على الجزء غير المتضرر من الدماغ..

***

-٢٢-

-دارك ويب، تجارب ش أ م، بحث..

ظهرت لي الكثير من الصور والفيديوهات والمقالات على شاشة الكمبيوتر، مقالات عناوينها «ألمانيا النازية تعود لتضرب من جديد، لكن هذه المرة في إفريقيا»، «حرب المياه العالمية قد بدأت»، «خمسة آلاف قتيل جرّاء التجارب على مياه الشرب».. نقرت على الصور لتظهر لي الجثث المتراكمة فوق بعضها البعض جرّاء وباء ما على ما يبدو، جثث عارية جافة، وصور مخابر وعقاقير وطوابير من البشر يقفون بعشوائية ليحقنوا بشيء ما..

ثم فيديو لمدة عشر ثوانٍ يصوّر تجمُّع الكثير من البشر حول ما يشبه

بئرًا من الماء وبأيديهم طناجر وأوعية، ثم في نهاية المقطع يظهر صوت صارخ مألوف (لا تشربوا من المياه القاتلة) وينتهي الفيديو، عدت لقراءة المقال الرئيسي، «تجارب شمال إفريقيا المدمِّرة».. وجدت فيه ما يلي:

«الغلطة التي ارتكبها مجموعة من العلماء ومطوِّرو العقاقير التي أودت بحياة خمسة آلاف شخص في إفريقيا بعد إعلان مركز الدراسات والبحوث في ألمانيا على توصلهم لتطوير عقار يساعد على سد حاجة جسم الإنسان من المياه، وذلك بهدف التقليل من استخدام المياه في كل أنحاء العالم، والجاهزية في حال حصول الحرب المدمِّرة على المياه، بأنه باستطاعة الإنسان أن يعيش بمقدار عشرة بالمائة من استهلاكه للمياه في الحالة الطبيعية وتحسين أدائه للعمل بكفاءة، لذا قامت ألمانيا بالتعاون مع فرنسا بإجراء أول تجربة في شمال إفريقيا على قرية تعداد سكانها خمسة آلاف نسمة، وكلهم عمال في المناجم، ويوجد بئر واحدة للمياه يغذي المنطقة، لكن منسوب المياه بدأ يقل بالتدريج حتى أصبح لا يكفي إلا لربع السكان، وبالتالي يعاني جميع سكان المنطقة من أزمة شديدة وهي نقص في المياه الصالحة للشرب، وأصبح من الصعب على فرنسا تزويديهم بمياه للشرب، لذا قررت وبالتعاون مع ألمانيا تجريب العقار في تلك المنطقة ليتم حلّ مشكلة المياه لديهم، وبعد أن تمّ تزويد المياه الموجودة في البئر بالعقار الألماني تجمّع سكان المنطقة مهللين لهذا الابتكار الجديد بحضور الأطباء المسؤولين عن العقار ومسؤولين سياسيين، حينها ظهرت من وسط الجموع امرأة تبدو أنها طبيبة وبدأت الصراخ بالألمانية «لا تشربوا من المياه المميتة» لكن لم يفهم أحد شيئًا مما كانت تقول، ثم اختفت هذه المرأة وتدفقت المياه إلى أعلى البئر وشرب الجميع منه بعد أن أخذ حاجته التي خفضت إلى

الربع في البداية، وبعد يومين أظهرت النتائج نجاح العقار لأن كفاءة أفراد المنطقة زادت في العمل وتحسنت إنتاجيتهم وقلّت حاجتهم للمياه في ذات الوقت، لكن بعد أسبوع تمامًا بدأت النتائج السلبية بالظهور، إذ انتشر القتل الكلوي الحاد وكأنه وباء قاتل، ودخل جميع السكان ولم يكن للنصف الآخر القدرة على دفنهم أو مساعدتهم لأنهم كانوا يحتضرون أيضًا، وفي الأيام القليلة التي تلتها مات البقية، خمسة آلاف نسمة من البشر قُتلوا خلال أيام معدودة وتكدست جثثهم في الشوارع. قامت ألمانيا وفرنسا بجمع الجثث في مقابر جماعية وحرقها لإخفاء الأدلة على جريمتهم وخوفًا من أن ينتشر الخبر إلى المناطق الأخرى، وأُغلقت المنطقة بالكامل، ودُفنت البئر وتم التستر على هذا الحدث بشكلٍ كامل، وتسرَّبت لنا هذه المعلومات من أحد الشخصيات السياسية التي كانت حاضرة ومشرفة على هذه التجارب منذ البداية وحتى حرق الجثث وإغلاق المنطقة وتصفية كل من اعترض على نتائج هذه التجربة الفاشلة التي أودت بحياة خمسة آلاف شخص، علمًا بأنه تمّ الوصول إلى الشخص الذي سرّب هذه المعلومات وتم اغتياله على يد السلطات النازية. أمّا مصير الأطباء مطوِّري العقار القاتل.. فقد بقي مجهولًا

***

١٠ مليمتر

-٢٣-

ماجدالينا بارك.. هذا ما كُتب في قصاصة الورق الجديدة التي حصلت عليها بسرية من ميرا جرّاء جلستنا الثانية، هذا الاسم الذي بدأت البحث عنه حتى وجدت أنه يعود للممرضة التي أشرفت على حالتها منذ وصولها إلى المشفى.. استأجرت سيارة وانطلقت إلى عنوانها الذي يبعد خمس ساعات عن ميونخ، وصلت إلى مكان إقامتها في حلول المساء، طرقت الباب عدة طرقات..

– مساء الخير سيدة ماجدالينا، أنا الدكتور غسان صديق ميرا..

ماجدالينا: اعذرني، لا أعلم من أنت، ولا أعلم من هي ميرا أيضًا..

@ART_OF_BOOK

غسان: ماذا؟! كيف ذلك؟ ألست أنت من أشرفتِ على حالتها ووضعِها منذ أن وصلت إلى المشفى النفسي في ميونخ؟

ماجدالينا: عملي مع المرضى يدخل في إطار السريّة والإفصاح عنه هو جريمة يحاسب عليها القانون.

غسان: انظري إلى هذه القصاصات، أعطتني إياهم ميرا عندما قابلتها، تأكدي من خط يدها ومن العبارات التي وضعتها، إنها رسائل سريّة..

نظرت مليًا إلى القصاصات وعاينتها وقالت:

– إذا كنت فعلًا غسان، فما هو لقبك الذي هربت منه كل حياتك؟

صُدمت من هذا السؤال الذي وضع عقلي في حيرة تامة، لكنني أجبت بتردد:

– قابيل، أنا هو.. قابيل.

ماجدالينا: تفضّل إذن إلى الداخل لنتكلم.

أغلقت الباب خلفي بعد أن ألقت نظرة على الجوار لتتأكد من أنني غير ملاحَق.. وأكملت:

– لدي من الوقت ساعة واحدة فقط قبل أن يعود صديقي إلى المنزل، لذا استغلها جيدًا يا قابيل.

غسان: لا اعلم من أين أبدأ سيدة ماجدالينا، ولا أعلم ما الأسئلة التي يجب أن أطرحها عليكِ.. كل ما توصّلت إليه أن ميرا اختفت ليلة تخرجنا من الكلية، ثم وصلني إيميل بعد خمسة عشر عامًا يقول إنها في مشفى الأمراض النفسية كمريضة وليست كطبيبة، وأصيبت بمتلازمة كورساكوف، وعندما قابلت المشرف عليها أعطاني تقريرًا لا يوجد فيه

شيء مهم عنها حصل معها في كل تلك السنوات، ثم قابلتها وأعطتني بعض الرسائل المخفية التي أوصلتني إلى تجارب في شمال إفريقيا، ثم قصاصة أخرى أوصلتني إليك..

ماجدالينا: لا عليك يا قابيل، لقد وصلت إلى وجهتك..

غسان: لماذا تناديني قابيل؟ لا أفهم.

ماجدالينا: لأنني أعلم كل شيء..

غسان: لكنني لست قابيل، أنا لست قابيل، أنا الدكتور غسان..

ماجدالينا: اهدأ وتناول بعض الأقراص المهدئة لأنك سوف تحتاجها واسمعني جيدًا لكي تفهم.

قبل ثلاث سنوات جاءت إلينا الدكتورة ميرا كمريضة إلى المستشفى، كانت حالتها مضطربة جدًا ومبؤوس منها، تم وضعها في قسم المرضى السريين باسم غير اسمها الحقيقي، وتم تجاهلها من قِبل الجميع، عُينتُ كممرضة دائمة تشرف عليها على الدوام.. بعد شهرين على التمام بدأت ميرا بوضع قصاصات من الورق الفارغة في يدي كل يوم، يبدو أنها كانت تختبرني إذا ما كنت سأبلغ عن الموضوع، ثم بعد شهر بدأت بوضع كلمات مفتاحية فيها، وهكذا حتى توصلت إلى التقرير الحقيقي عن حالتها من قبل زملاء العمل المتعاونين في المشفى وفهمت بعدها كل شيء..

قاطعها غسان: ماذا يوجد في ذلك التقرير؟

ماجدالينا: طبيبة متطوعة سابقة في البحوث العلمية المتطورة في الدولة، تم وضعها تحت تجربة استخلاص المعلومات من الدماغ، مما سبّب ضررًا وتلفًا في الدماغ، وتم نفيها في سجن خاص، الأمر الذي أدى إلى إدمانها

على الكحول وتسبب لها بمتلازمة كورساكوف، ثم تم تحويلها إلى المستشفى التخصصي للأمراض النادرة في ميونخ.

غسان: متطوعة؟! استخلاص معلومات! أكمِلي أرجوكِ.

ماجدالينا: بعدها بفترة وجيزة أصبحنا نخرج إلى حديقة المشفى للنزهة، وحين أبلغتها بأنني قرأت ملفها وأعلم ماذا حصل في شمال إفريقيا وفككت شيفرة العبارات التي كتبتها على قصاصات الورق باحت لي بقصتها وقالت:

– قبل تخرُّجي من الكلية بعدة شهور قرأت بحثًا عن عقار يتم تطويره لمساعدة الناس في إفريقيا بتوفير مياه الشرب لهم والتخفيف من تعبهم أثناء العمل في المناجم، لذا تقدَّمت لهذا العمل كمتطوعة في البحوث العلمية بعد أن أرفقت أطروحة عن الموضوع من شأنها أن تحسِّن من جودة العقار، وفي يوم تخرُّجي كنت أنتظر غسان ليعود إلى المنزل لنحتفل سويًا وأبلغه عن الأمر، لكن جاء رجلان إلى البيت حينها وقالا إنهما من رجال الأمن السِّري في الدولة، وأنه تم قبولي كمتطوعة في البحوث العلمية للعمل على الأطروحة التي قدمتها لهم ويجب أن أغادر معهم دون أن أخبر أحدًا أو يعلم أحد كيف وأين سوف أعمل.. وافقت على الموضوع بعد أن أقنعت نفسي أن الهدف من هذا العمل سامٍ وإنساني بحْت، وفي ذات الوقت لم أكن أعتقد أن الأمر سيتطلب هذا النوع من السرية لاحقًا، لكن بعد عشر سنوات من العمل والتطوير على العقار والتجارب المخبرية، جاء القرار بأنه سوف يتم إجراء التجربة على البشر في إفريقيا، رفضت ذلك مع عدد من الأطباء المشرفين على الموضوع، لأن العقار ما زال قيد التجربة المخبرية وله تأثيرات جانبية خطيرة على الكُلى وبسبّب الموت

الدماغي في تلك المناطق المعدومة من الرعاية الطبية، لكن الأوامر كانت قد صدرت، وحين إجراء التجربة في إفريقيا كنت بين الحضور وصرخت مناشدةً الحشود بألا يشربوا من المياه لأنها قاتلة، لكن تم إسكاتي وحبسي بعد أن تمّ إعلامي بالنتائج الكارثية التي أدت إليها التجربة، وكنت حاضرة للإشراف على حرق الجثث التي تكوَّمت، ومن ثمّ تمّ قتل كل الأطباء بعد أن تمّ استخراج المعلومات الكاملة منهم عن العقار، لأننا وضعنا الشيفرة النهائية للعقار برمز كل طبيب من الخمسة المشرفين عليه أن يحفظ جزءًا منه، ولا يتم إنتاجه إلا بمعرفة هذا الرمز كاملاً، عملوا جاهدين على انتزاع الجزء الأخير مني، لكنني قاومت ورفضت بقوة حتى أخضعوني لعملية استخراج المعلومات من الدماغ، حينها تعرَّض دماغي للضرر، وبعد أن أصبح الرمز بين أيديهم بدأوا بتحضير كميات كبيرة من العقار لاستخدامه كسلاح في الحروب القادمة، وتم تصنيفي كمختلة متضرِّرة الدماغ ونفوني إلى كوخ صغير في قرية مهمَّشة كان سكانها من أشهر صنّاع البيد، فأدمنت الكحول حينها لأنه كان مهربي الوحيد من الآلام التي كنت أعاني منها ومن الكوابيس والهلوسات التي كانت تصيبني جرّاء تذكر أكوام الجثث المتفحمة، وفي ذات الوقت كانت خطتي بأن أُصاب بمتلازمة كورساكوف ليتم تحويلي إلى ميونخ لأصل إليكم لعلّي ألتقي بغسان الذي كان مهووسًا بمثل هذه المتلازمات النادرة.

التبهت السيدة ماجدالينا على تأثُّري من القصة وبكائي الذي حاولت جاهدًا أن أخفيه طوال الوقت.. هل تريد مني التوقُّف يا قابيل؟

غسان: لا لا، أرجوكِ أكملي.

ماجدالينا: حاولت ميرا إخفاء أنها تستعيد ذاكرتها وأنها قادرة بطريقة ما على السيطرة على نوباتها، بل في بعض المرات هي من كانت تفتعلها لكي تتجنب تقييم الأطباء بأنها واعية لما يدور من حولها، وتصرفت بذكاء حاد لتزييف أعراض المرض والمبالغة فيها، ليفقدوا الأمل منها، ونجحت في ذلك، وفي نزهتنا التالية قالت لي:

– أريد منك يا سيدة ماجدالينا أن تبحثي عن شخص اسمه الدكتور غسان لا أعلم أين هو وماذا فعلت به الحياة، لكن هناك صندوق صغير يجب أن يصل إليه، وأعطتني اسم وعنوان صديقة لها كانت قد وضعت الصندوق في أمانتها منذ أن كانت في السنة الثالثة في الكلية بعد أن روت لي قصة حياتك كاملةً وسبب مناداتك قابيل، وبعد أن وصلت إلى الصندوق علمت أنه يحتوي على تسجيلات وصور ليوم حادثة مقتل أخيك، أرسلته إليك كما طلبت، وقالت إنها أخفته عنك عندما وصل إلى باب الشقة عندما كنت في السنة الثالثة في الكلية الطبية لأنها خافت عليك من أن تعود إلى وطنك وترتكب جريمة ما حمقاء، لذلك أخفته بمكانٍ آمن، لكنها ندمت أشد الندم طوال تلك السنوات اللاحقة لأنها شعرت أنه ليس من حقها أن تخفي مثل هذه الأسرار عنك.. وطلبت مني وضع رسالة في الصندوق تخبرك فيها بأن تبحث عن أنثى كانت مقربة من أخيك يبدأ اسمها بحرف الـ ص لأن هذا سيساعدك على حلّ القضية..

انهارت قواي حينها وبدأت بالبكاء والصراخ..

– ليس لها حق أن تتركني وتغادر هكذا.. ليس لها الحق أن تخفي عني هذه الأدلة التي بسببها تحوّلت حياتي إلى جحيم وخسرت كل عائلتي.. ليس لها الحق أبدًا..

ماجدالينا: لكنها قالت إنك كنت في مرحلة التعافي ومثل هذه الأشياء قد تسبب انتكاسة لك..

غسان: ومع ذلك هذا فليس من حقها، انظري الآن إلى هذه الفوضى التي وضعت نفسها فيها.. إنها مختلة مضطربة دماغها يعمل بكفاءة ٢٠٪ وحياتي بعدها تحوّلت إلى جحيم في كل تلك السنوات التي بحثت عنها..

ماجدالينا: بقيت عشر دقائق، دعني أكمل لك الجزء الأهم.

غسان: هل يوجد أهم مما قلتِهِ؟

ماجدالينا: نعم يوجد، لأن ميرا عملت على حلّ القضية ومعرفة قاتل أخيك، ووصلت إلى الجواب النهائي ووضعته في رسالة في مدونتها الإلكترونية الخاصة، وهي فقط من تعرف كيفية الولوج إليه.

صمتت ماجدالينا قليلًا ثم قالت:

– تذكّر جيدًا أن كل هذا الألم الذي عانته في السنوات الأخيرة هو بهدف الوصول إليك، لكي تقابلك وتعتذر منك على مغادرتها بتلك الطريقة وإخفائها للأدلة عن الحادثة.. لذا حين تقابلها تذكّر أنها تتألم وتقاوم كثيرًا من أجلك لكي تصل إلى الحقيقة..

غسان: الحقيقة!! ما الحقيقة؟ أجيبيني.

ماجدالينا: لا أعلم، لقد قلت لك كل ما توجّب عليّ قوله، لكن عليك أن تعلم أنه تم استدعاؤك إلى المستشفى بعد أن تأكدوا أنها فاقدة للأهلية تمامًا ولا نفع منها لشيء، ومن ثمّ تم التخلص مني بنقلي إلى مستشفى آخر لكي يخفوا عنك كل المعلومات والسبب الحقيقي لوصولها إلى هذه الحالة، لذا لا تثق بأحد، كلهم كاذبون..

غسان: أرجوكِ سيدة ماجدالينا، ما الحقيقة من قتل أخي حيان؟

ماجدالينا: انتهى الوقت، عليك المغادرة يا قابيل..

***

-٢٤-

- صباح الخير حبيبتي ميرا..

التفتت ميرا كعادتها نحوي وبعيون دامعة وبجدية غريبة قالت:

- الطقس مشمس اليوم، هل من الممكن أن نذهب في نزهة دكتور إكس؟

غسان: لا أعلم، دعيني أرى ما أستطيع فعله..

فتحت باب الغرفة لأجد الدكتور مارك واقفًا أمامي ليقول:

- إنه يوم النزهة دكتور غسان، هل تريد اصطحاب ميرا إلى الخارج لتتنشق الهواء النقي؟

أومأت برأسي بالإيجاب بعد أن فهمت أننا مراقبون بشدة، وأخذت ميرا من يدها لنصل إلى الحديقة..

غسان: قابلت السيدة ماجداليا وشرحت لي كل شيء..

ميرا: إذن بدأت تقترب من النهاية أكثر فأكثر..

غسان: نهاية ماذا يا ميرا؟! لقد قمت بتقديم طلب خروج لك من المشفى، سوف تخرجين قريبًا جدًا ونعود لنعيش سويًا تحت سقف واحد.. سوف أخلِّصك من كل الآلام التي عانيت منها.. سأكون الدكتور إكس من أجلك هذه المرة.

ابتسمت ميرا وضغطت على يدي بقوة وهي تقول:

– احجز تذكرتين عودة إلى بلدك لي ولك في نفس تاريخ يوم المغادرة..

غسان: كيف ذلك؟ أنت بالتأكيد ممنوعة من المغادرة، ثم هل لديك وثائق سفر تستطيعين استعمالها أثناء مغادرتنا؟

ميرا: افعل ما أقوله لك..

غسان: هل تعلمين من أرسل الصندوق الذي كانت به الأدلة؟

ميرا: نعم، كان موقّعًا باسم صوفيا، لكنني أخفيت ذلك لأحميها..

غسان: صوفيا! كيف ذلك؟!

ميرا: لا أعلم، ولم أجد عنها أي معلومة مفيدة في الصندوق، لكن بعد تحليل الموضوع فهمت أنها عشيقة حيان، والعشيقة دومًا يكون لها الدور الأكبر في مثل هذه القضايا كما تعلم..

غسان: إذن، من قتل أخي حيان؟

ميرا: سوف تعلم في المكان والزمان المناسبين، لكن تذكَّر قانون كوهن..

غسان: «ما بهم فعلًا هو الاسم الذي تطلقه على الحقائق وليس الحقائق نفسها»، أهذا ما تقصدينه؟

ابتسمت ميرا وقالت لي: أنا آسفة يا غسان، آسفة حقًا.. ثم افتعلت نوبة هستيرية لتسقط بين أحضاني بعد أن دسَّت في جيبي قصاصة ورق، وأخذت من ذات الجيب ظرف الحبوب الذي كانت تعلم أنني لا أغادر من دونها عند ظهور الشمس، مضادات التحسُّس (هيستامين)، فاجتمع المرضون لمساعدتي على حملها إلى الداخل..

غسان: دكتور مارك، هل تحدثتَ إلى مدير المستشفى بخصوص خروج ميرا؟

مارك: نعم بالتأكيد، فبعد دراسة حالتها الصحية والنفسية نعتقد أنه من الأفضل لها أن تكون مع أشخاص مقربين منها كي تحظى برعاية جيدة بعيدًا عن أجواء المستشفيات، لذا يمكنها المغادرة في الأسبوع الأول من العام بعد أن يتم ترتيب فحوصاتها النهائية وأوراقها الرسمية.

غسان: لا مشكلة في ذلك، لكنني بحاجة إلى أوراقها الثبوتية فأنا أخطط بأن أصطحبها لنجوب العالم، لعل ذلك يحسِّن من حالتها ويخفِّف من اضطرابها.

مارك: لك ذلك دكتور غسان..

***

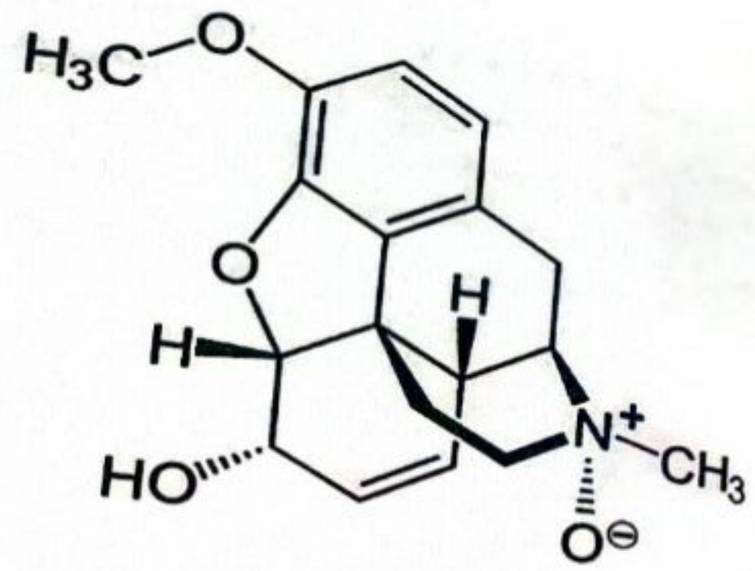

١

-٢٥-

٩ مليغ من المورفين الوريدي لا بأس بهم لمحاولة التخلُّص من بؤسي الذي رمتني به ميرا، مع أنني أعلم أن الجرعة في ازدياد، فبعد أن سمعت ما قالته ممرضتها بدأت بـ ٣ مليغ والآن بعد عشرة أيام الجرعة بطريقها إلى الازدياد، أعلم أن ذلك خاطئ لكنها انتكاسة عابرة، أسبوع واحد فقط وينتهي هذا الكابوس وأعود ومعي ميرا لنبدأ الحياة من جديد، أعلم أني أستطيع إنقاذها، هي أذكى وأدهى امرأة عرفتها في حياتي، وفي ذات الوقت سوف تنقذني هي بالبوح لي بالمعلومات التي تعرفها عن قاتل أخي.

تعرُّق بارد غزير.. حرارة منخفضة.. دقات قلب بالكاد تُسمع.. استرخاء تام.. أصوات مفرقعات من الخارج.. ضجيج على السلالم..

موسيقى.. عدٌ عكسي ١٠ ٩ ٨ ٧ ٦ ٥ ٤ ٣ ٢ ١ تصفيق.. قبلات.. مشروبات في الهواء.. ضجيج مفرقعات أعلى.. ألوان الطيف كاملة تنقش السماء.. انعكاسات ضوء مزعجة في الغرفة.. النوافذ تبرق.. عام جديد.. حياة جديدة.. متعب جدًا.. يجب أن أنام.. لا أستطيع النوم.. ثلاثة مليغ أخرى لن تضر.. استرخاء.. هدوء تام.. ظلام دامس..

***

-٢٦-

صوت رنين الهاتف لا يتوقف.. أجبرت نفسي على الإجابة..

- الو..

ماجدالينا: قابيل، عليك المغادرة على الفور..

غسان: مهلًا، ما الذي يحصل؟

ماجدالينا: اسمعني جيدًا، كل ما عليك فعله الآن هو التوجه إلى المطار والمغادرة على الفور إلى أي بلد كان قبل أن يلقوا القبض عليك..

غسان: لا أفهم شيئًا سيدة ماجدالينا، من سيلقي القبض عليّ؟ يجب عليّ أن أتجهز لإخراج ميرا اليوم من المستشفى ولن أغادر إلا معها..

ماجدالينا: ميرا قُتلت يا قابيل.. أو انتحرت، لا أعلم! هل تسمعني!

أنت سوف تكون المتهم الوحيد بقتلها أو مساعدتها على الانتحار..

غاب صوتي من على الهاتف وبقيت أنفاسي المتقطعة التي بدأت تتصاعد لتصبح لهيبًا نتيجة تعرُّضي لهجمة ذعر شرسة..

ماجدالينا: عند الفجر وجدوا ميرا منتحرة عن طريق التسمم الدوائي، وعندما راجعوا أشرطة الكاميرات في غرفتها وجدوا أنكما تتبادلان أشياء صغيرة عند مقابلتك لها، وهم يرجّحون أنك أنت من سرَّب لها الأدوية لمساعدتها على الانتحار، وهذا الاستنتاج اكتُشف من عشر دقائق، لذا سوف يتحققون من الأمر بتشريح جثتها، والآن أقول لك اهرب سريعًا، لا تملك الكثير من الوقت قبل اكتشاف كل شيء واتهامك بقتلها..

– انتحارا تسمم دوائي! اكتشاف كل شيء!

بدأتُ أتمتم بصيغة غير مفهومة.. كيف علمتِ أنتِ؟

ماجدالينا: أنا على دراية بكل شيء من زملائي المتعاونين كما قلت لك سابقًا، فالقسم الأكبر في المشفى غير راضٍ عن تصرفات الشرطة السرية والأطباء أصحاب النزعة النازية الذين يساعدونهم على تكميم الأفواه وإخفاء الحقائق.

الآن يجب أن أنهي المكالمة، تفقَّد بريدك عند التأكد من مغادرتك للأراضي الألمانية.. لعلك تجد الإجابات لأسئلتك..

وأغلقت المكالمة.

***

-٢٧-

٦ مليغ مورفين.. تعرُّق شديد.. ارتباك.. رجفة في اليدين.. هلوسات.. صراخ.. دموع لا إرادية.. مشاعر متضاربة.. حزن.. ألم.. فقدان.. فوضى داخل عقلي.. أشعر أنني تائه.. بل وحيد.. نعم، أنا وحيدٌ جدًا.. جلبت الحبل من الخزانة، ربطته بإحكام في منتصف السقف عوضًا عن الضوء.. شددت عقدته بإحكام مطلق.. لم يبق لي شيء في الحياة.. يجب أن أموت.. ترددت كلمات ميرا في عقلي عندما كانت تقول لي: لست أنت من يجب أن يموت يا غسان، بل أفكارك في لحظات ضعفك والتي تسيطر على تصرفاتك هي التي تستحق الموت، لذا حاربها واقتلها إن استطعت لتعبُر إلى بر الأمان..

وقفت على الكرسي أنظر من خلال الدائرة التي صنعتها في المنديل المتدلّي من السقف.. أبكي.. أضحك.. أشعر بالاسترخاء.. أتذكر أنني أردت الموت الكثير من المرات.. لكن هذه المرة يجب أن يكون لموتي فائدة على عكس حياتي البائسة.. لن أموت قبل أن أنتقم لعائلتي المدمّرة ولميرا.. سآخذ معي كل السفلة على الأرض إلى الجحيم.. لن أموت اليوم.. جلست على الكرسي لألتقط أنفاسي بعد أن هدأت نوبة الذعر.. استجمعت قواي بمساعدة العقار الأكثر قوة والأشد فتكًا بالإنسان.. المورفين..

بدّلت ثيابي على عجالة وأخذت مفكّرتي بعد أن وضعتها مع كل قصاصات الورق في الحقيبة الصغيرة التي فيها أوراقي الثبوتية، جهزت جرعة ثانية مكونة من ٦ مليغ أخرى من المورفين لأتعاطاها قبل دخولي إلى المطار كي أستطيع النوم في الطائرة.. وصلت إلى المطار مرتديًا بدلة رياضية ونظارات سوداء كبيرة تغطي القسم الأكبر من الوجه، لتخفي ملامح الإدمان، مضغت علكة كبيرة الحجم لأحاول تخفيف الضغط على أسناني من الارتباك حتى صعدت إلى الطائرة وقبل مغادرتها فتحت الكمبيوتر المحمول لأتفحص الإيميل، لأجد فيه رسالة واردة من ماجدالينا فيها حساب لمدونة خاصة وتحتها كلمة السر وبضع كلمات مقتضبة..

«هذه مدونة الدكتورة ميرا التي أشرفت أنا على وضع كل المعلومات بداخلها بإيعاز منها، سوف تجد الكثير من الأسرار التي يجب فضحها للتجارب التي يقومون بها على البشر وخطتها الذكية لإيصالها إليك ومن ثم طريقة قتلها، وفي ذات الوقت فيها سرك الثمين الذي بحثت عنه طوال حياتك.. مَنْ قتل حيان؟»

حاولت جاهدًا الدخول إلى المدونة، لكن الطائرة كانت قد أقلعت وفقدت الاتصال بالإنترنت، ومحاولتي لشراء إنترنت فضائي باءت بالفشل لأن المورفين كان قد أنهك قواي وجعلني فاقدًا للتركيز، لذا استسلمت للنوم..

***

-٢٨-

دكتور غسان، تفضّل معنا من فضلك..

غسان: من أنتم، وإلى أين؟

جهاز أمن الدولة، لدينا مذكّرة باعتقالك..

ـ كنت ما زلت مشوّشًا، وآثار الجرعة الأخيرة من المورفين لم تزُل بعد، بدأت أتمتم بارتباك.. اعتقالي أنا! أنتم مخطئون بالتأكيد.. أصابتني نوبة هلوسات وبدأت أرى الجميع في المطار ينظرون إليّ بوجه شامت ضاحك وينادون عليّ بأبشع الألقاب.. قابيل المجرم.. قابيل القاتل.. لترتفع العيون وتطوّق نطاق نظري وتضغط على صدري أكثر فأكثر ليرتفع معها صراخي.. أنتم مجانين.. أنتم مجانين.. حتى أغمي علي..

@ART_OF_BOOK

استيقظت ويدي اليسرى مقيدة في سرير المشفى الذي نُقلت إليه..
ضغطت على جرس الإنذار الموضوع بالقرب مني لتأتي الممرضة فسألتها..

– أين أنا؟ ولماذا أنا مقيد؟

أجابت: أنت في المشفى، لكنك رهن الاعتقال وبعد قليل سوف يأتي الطبيب ليرى حالتك وإذا كنت على ما يرام سيتم تحويلك إلى السجن..

لمحت على باب الغرفة شخصًا ضخم المظهر يحمل مسدسًا في خصره لكنه بثياب مدنية وعندما أقبل الطبيب قال لي:

– دكتور غسان، منذ متى وأنت مدمن على المورفين؟

أجبته: أنا لست مدمنًا لكنني أمرُّ بظروف صعبة لذا أتناول القليل منه ليهدِّئ من حالتي.

الطبيب: إن مركّب الإدمان في دمك يقول غير ذلك تمامًا، على كل حال مع الأسف الشديد دكتور غسان، سوف تعاني كثيرًا من أعراض الانسحاب خلال فترة الحجز لأننا بدأنا بتخفيف الجرعات وإعطائك العقارات المساعدة على التخلُّص من إدمانك، وأنت بلا شك على دراية كاملة بما أنت مقبل عليه..

– هززتُ رأسي بخجل كطفل صغير كُشف سرُّه، ورأيت حينها فرقة مكونة من أربعة أشخاص دخلوا الغرفة ليأخذوا موافقة الطبيب على أنهم قادرون على اصطحابي معهم ومنها إلى الحجز.

***

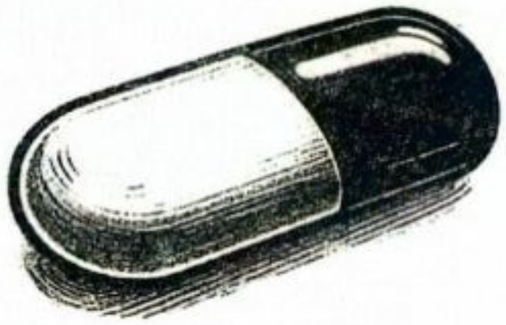

وجع قاتل في الرأس.. رجفة متسارعة في الأصابع.. تعرُّق متكرِّر..
هلوسات.. ألم في الحلق.. ذهان.. اضطراب في حركات الجسم..

– ما الأمر يا قابيل؟ هل أنت بحاجة إلى جرعتك أيها المدمن الوضيع؟

– أسامة!! ماذا تفعل هنا؟! أنا لست مدمنًا أيها الغبي إنني فقط أتعامل مع معاناتي التي وضعتموني بها على طريقتي..

أسامة: المورفين هي طريقتك! وبجرعات منتظمة!

غسان: لماذا أنا هنا؟

أسامة: لأنك مجرم ومتعاطٍ ومروِّج ومخادع وخائن للوطن، والآن بات إجرامك دوليًا أيضًا..

غسان: إنك واهم أيها الخبيث.. إذا كنت تريد مواجهتي عليك ان تحضر لي ثلاثة مليغ من المورفين وبعد ساعة تفضّل لأواجه اتّهاماتك هذه..

أسامة: لك ذلك، أنا أعشق التحدي.. أراك بعد ساعة.

ورمى حبة مورفين عيار ٥ مليغ أمامي على الطاولة..

***

أسامة: من أين تريد البدء؟

غسان: أريد ان اتصل بأهلي..

أسامة: بالتأكيد، هذا حقك المشروع، لكنني اتساءل: أين هي شجاعتك لمواجهتي؟

غسان: أنت سافل ووضيع ومصيرك هو السجن، وهذا ما سوف تحصل عليه..

ضحك أسامة بطريقة مستفزة حيث كاد ينقلب على ظهره إثر تشنجات الضحكة، ثم اقترب من الطاولة ليضع كفيه مضمومين وبوجه جدي قال:

— هل تعلم بالفعل من أنا وما الذي أستطيع فعله بك؟ هل أنت مدرك حجم الاتهامات التي أنت محجوز بسببها، أم أنك تحت تأثير المورفين أيها الطبيب العظيم؟ أم تفضّل أن أناديك شيرلوك هولمز العصر الحديث؟

غسان: أولًا: عقار المورفين الذي كنت أتعاطاه يحسّن من المزاج ومن المستوى الإدراكي للعقل ويعالج الاكتئاب ويوسّع آفاق الدماغ للبحث عن الحلول للمعضلات التي تواجه الإنسان.. ثانيًا: أين كنت في تلك الساعة التي تعرّض فيها حيان للانتكاس وعلمتم أن نبضه قد انتهى؟ أقصد بين الساعة الواحدة وإلى أن اتصلتم بسيارة الإسعاف الساعة الثانية، ماذا فعلت؟

أسامة: كنت أعلم ذلك.. بل حتى أنني راهنت على أنك لم تستطع الوصول إلى مدوّنة صديقتك التي قتلتها يا قابيل، وإلا لم تكن بمثل هذه السذاجة والجرأة لتطرح مثل هذا السؤال.

غسان: هل تجرأتم على فتح كمبيوتري الشخصي وتفحُّص مدونة ميرا السرية؟

أسامة: أنت الآن في قفص الاتهام، ولأكون موضوعيًا أقل تهمة موجهة إليك تجعل رأسك معلقًا في الساحة العامة للبلدة، وفي حال رأفَ القاضي بك ستُسجن مدى الحياة مع الكثير من الأعمال الشاقة التي ساحرص شخصيًا على أن تفتك بك..

غسان: بما أنك واثق من أنني سأبقى مسجونًا أو ميتًا حتى، لماذا تبدو خائفًا من الإجابة عن سؤالي؟

أسامة: لأنه مضيعة للوقت، لكني سأجيبك.. هلعتُ من منظر حيان

في تلك الليلة، وبالطبع كنت أنا المصدر لتلك الحبوب لأنها مصدر رزق وقوة عائلتي، لذا اتصلت على والدي وقلت له بملح إن حيان قد مات من كثرة التعاطي على ما يبدو، وفي هذه الساعة أرسل والدي فريقًا كاملًا ليمحو أي آثار تربطنا بموت حيان ولتبعد الشبهات عني لأن مستقبلي كان مرسومًا لأصبح ما أنا عليه اليوم، فها أنا أمامك الآن وزير اقتصاد الدولة والمسيطر الأول على تجارة الممنوعات في البلد ومُصنِّعها..

غسان: إذن أنت تعترف أنك أنت من قتلت حيان بالحبوب المخدِّرة التي تصنعونها؟ وأبوك وحاشيته كانوا الغطاء لجريمتك القذرة؟

ضحكة عابثة من أسامة.. يبدو أن كثرة تعاطي المورفين خربت القسم الأهم من دماغك المسؤول عن الذكاء.. قلتُ إنني كنتُ المصدر الذي يؤتن الممنوعات ولم أقل إنني أجبرته على تعاطيها.. حيان كان جامحًا وهذه مشكلته التي أودت بحياته، وطبعًا الفضل الأكبر ينسب إليك أنت بقتله..

غسان: إليَّ أنا!! ما دامت الأوراق باتت مكشوفة وأصبحت وزيرًا وفوق القانون ولا تهاب شيئًا، لماذا أنت مُصرّ على أنني أنا من قتلته؟ لا أفهم تحاملك عليَّ!

أسامة: الموضوع بسيط جدًا يا قابيل، في ذلك الوقت كنا بحاجة إلى حَمَلٍ وديع نلقي اللوم عليه لتبتعد أنظار الناس والدولة عن الأشخاص الذين كانوا مع أخيك وعن مصدر المخدرات، وتدخُّل والد ماجد بثروته وقوة اسم عائلته لحماية ابنه أيضًا بابتداع هذه الخطة التي لاقت رواجًا بين الناس وأحبوها كان عاملًا مهمًا.. لذا بكل شفافية أقول لك إنك كنتَ الحَمَلَ الوديع الذي زُيّن بالأجراس التي أثار طنينها ضجّة محلية، وأمّك كانت ضحية عاطفتها وأباك كان يفضّل الموت على العيش ملوّث

السمعة.. ابن منتحر بالمورفين وابن مموّل قتل أخاه غيرةً منه وزوجةً ماتت حزنًا..

غسان: لكنني لم أقتل حيان وفقًا لروايتكم هذه، فعلى ماذا سوف أحاسب؟

أسامة: يجب أن تقرأ مدوّنة حبيبتك المقتولة على ما يبدو لتفهم لأن وقتي أثمن من أن أضيّعه معك.

غسان: هل تعلم أن لديّ ملفات وصور وتسجيلات تدينك أنت وماجد وسلطان وعمار وحميد ووائل؟

أسامة: أتقصد تلك التي كنت تخفيها في خزانتك السرية؟ لا عليك، هي الآن بأمان معي، وبالنسبة لخطتك التي رسمتها لتدمير كل من ذكرتهم فاطمئنك أني نفذت الخطة على أكمل وجه، لكن على طريقتي وبما يصب مع مصالحي.. والآن ذكّرني، ما اسم المحامي الذي كنت تريد أن تتواصل معه؟

تلعثمت وبدأت عيوني تتقلب مع تشنج بيدي بالكاد سيطرت عليه عندما أدركت بأنني هالك وبأن أسامة وضع كل نفوذه بمساعدة أصدقائه المجرمين للتخلُّص مني، وجاهدت لأنطق اسم المحامي وقلت: صوفيا أريدك أن تستدعي صوفيا لتمثِّلني..

ابتسم أسامة وهو ينظر إليّ كفريسة نُهِش لحم رقبتها والآن تعاني وتناضل لتخرج الروح منها بسلام وقال مغادرًا:

– قلت لك إنك لم تعد تملك الذكاء الكافي لتتهرب من أفعالك.. أنسيت أن القاضي لا يترافع كمحامٍ؟

وحق ولو كانت محامية فقط، فأنا متأكد من أن زوجتي المستقبلية لا تشرف بالترافع عن مجرم ساقط مثلك قتل عشيقها السابق، وسأضيف لمعلوماتك أنها قد أصبحت المحامي العام الأول في البلدة، لكنني سأستدعيها كي تشفي غليلها بالنظر إليك وأنت بهذا المنظر الوضيع، خاصةً بعد أن تحديتها في المحكمة التي عاهدت الله بعدها بأنها سوف تنتقم منك..

ثم أغلق الباب خلفه..

صواعق برّاقة ضربت عقلي في تلك اللحظة.. صوفيا ستصبح زوجة لأسامة!! أسامة وزير الاقتصاد!! صوفيا المحامي العام!! خزانتي السريّة! خطتي للانتقام! المعلومات والملفات كلها بحوزتهم! أنا مجرم دولي أيضًا! اقتلوني بقتل حبيبتي!

تعرُّق بارد يصل إلى أسفل ظهري.. تقوقعت بجسدي على الأرض.. نوبة من الهلوسات.. أصوات من الجدران تهمس باستفزاز.. قاتل.. مجرم.. قابيل.. صراخ مكتوم.. احتكاك أظافر على الوجه.. ضرب رأس على الأرض.. دخول شخصين إلى الغرفة.. صفعات.. ألم.. حقنة تغرز في العنق.. صوت المورفين يتدفق إلى الدم.. هدوء تام.. استرخاء كامل.. ظلام دامس.

***

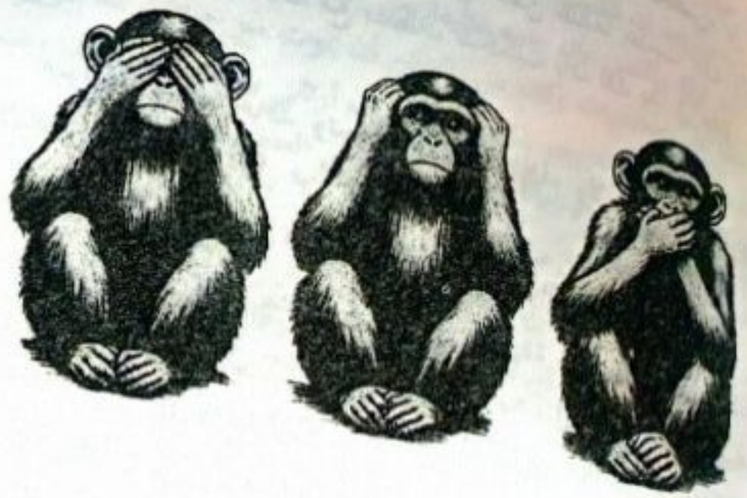

-٣١-

صوفيا: يبدو أنك معتاد على العيش في مثل هذه الغرف العقيمة المصنّعة خصيصًا للمجرمين أمثالك.

غسان: شكرًا لأنكِ أتيت.. ما الذي يحصل هنا؟

صوفيا: لا أفهم جرأتك بطلب المساعدة مني بعد أن فعلت ما لم يجرؤ احد من قبلك على فعله؟!

غسان: اعذريني، لم أكن أعلم أنك أنت من أرسلت الطرد الذي وصل إليّ متأخرًا خمسة عشر عامًا، لقد تمّ التلاعب بي لأنني كنت في حالة يُرثى لها..

صوفيا: وكيف هي حالتك اليوم؟ أليست يُرثى لها بشكل أكبر؟!

غسان: صدقيني لم يكن هدفي إيذاؤك بشكلٍ شخصي، بل كنت أحاول جمع المعلومات بشتى الوسائل، لكن عندما علمت أنك تزوجت من ماجد ولديك علاقة مع سلطان شككت بأن لك يدًا في مقتل حيان أيضًا.

صوفيا: لأنك حاقد وتسعى فقط للانتقام ولا تبالي إذا كان هذا الانتقام سوف يدمر كل من حولك.

غسان: لماذا أرسلتِ الطرد المليء بالصور والتسجيلات حينها؟

صوفيا: لأنني كنت مثلك أسعى إلى الحقيقة والانتقام، لكنني أذكى منك ولم أستعمل ما قتل حيان كوسيلة لأفكر بشكل أفضل وليخرجني من معاناتي، بل جعلت إصراري على كشف الحقيقة هو ملاذي من الاكتئاب بعد موت حيان..

غسان: إذا كنتِ تقصدين تعاطي المورفين فأنا طبيب وأنت تعلمين أن العقاقير اختصاصي وهذا جزء من خطتي وجعلته خطة «ب» في حال ساءت الأحوال.

صوفيا: فهمت خطتك ورسالتك قد وصلت حين شهدتَ في المحكمة، ولم أتفاجأ عندما علمت بحالتك الآن، لكن لن تنفعك هذه الخطة بعد اليوم..

غسان: لم تجيبي على سؤالي؟

صوفيا: حسنًا.. أرسلته لأنني بعد وفاة حيان تقربت من ماجد لأفهم الحقيقة، واستطعت أن أعلم تفاصيل تلك الليلة لكنها كانت منقوصة، وأرسلتها إليك لتعود وتساعدني في حلّ اللغز المنقوص لأنني كنت متأكدة

أن حيان قُتل وعلى يدي أصدقائه الذين كانوا معه، واضطررت للزواج من ماجد بعد أن علمت أن لديه وثائق وتسجيلات عن تلك الليلة، ولأن عائلته ثرية وأقنعني بأن يديه نظيفة من حادثة القتل لأنه هو أيضًا كان مدمنًا على المخدرات وكان من الممكن أن يموت مع حيان.. ساعدته على التخلُّص من إدمانه وهو ساعدني على أن أرتقي بالمناصب إلى أن وصلت اليوم إلى أكبر منصب بالقضاء وهو المحامي العام.

غسان: وماذا عن سلطان؟

صوفيا: سلطان مجرد حجر تعثرتُ به وانزلقت في فوضى حياته، كنتُ أعلم أنه كان متيّمًا بي ويلاحقني في كل الأوقات، حتى أنه شارك ماجد ليبقى قريبًا مني، حاولت استخلاص المعلومات منه، فاعترف لي بمشاركة ماجد وعائلته في إخفاء القصة الحقيقية لمقتل حيان وكان نتيجة هذه الغلطة موسى ابني الصغير الذي لم يتجرّأ ماجد على النطق بشيء عندما علم أنه بات مفضوحًا أمامي.

غسان: لكن أسامة قال إنك سوف تصبحين زوجته!

صوفيا: هذا صحيح، أسامة شخصية سياسية مرموقة وبات وزيرًا للاقتصاد، واتحادي معه يشكّل قوة على صنع وتغيير القرار..

غسان: لكنه مجرم وفاسد وأكبر تاجر للمخدرات، وهو من قال لي إن والده أرسل رجاله لكي يغطوا تفاصيل تلك الليلة، إذن هو من قتل حيان وهو من يجب أن تعاديه وتنتقمي منه لا أن تتزوجيه.

صوفيا: هذا ما تراه أنت، لكن بعد اطلاعي على مدوّنة حبيبتك التي قتلتها عرفت الحقيقة كاملةً، وعلمت أنك أنت الشخص الوحيد الذي يتوجّب علينا جميعًا القصاص منه.

ثم اقتربت من أذني وهمست بها: (أفضل طريقة لتجنُّب أذى ملك الغابة الأسد، أن تكون لبؤته، لأنها الوحيدة التي لا تشكِّل مصدر تهديد له، وفي ذات الوقت هي الوحيدة القادرة على إخضاعه، ولها القدرة على وضعه في القفص عندما يضعف لاحقًا..).

غسان: أنا لا أفهم شيئًا! أقسم لك أنني لم أقتل أحدًا! أقسم لك أنهم هم من قتلوا حيان، أصدقاؤه من قتلوه وتآمروا على إخفاء الحادثة وتلفيقها لي للنجاة بأنفسهم، وميرا أنت لا تعلمين شيئًا عنها، لقد قتلوها كي لا تفشي أسرار دولتها النازية وجرائمهم التي ارتكبوها في إفريقيا، ثم قتلوها في المشفى بجرعات من العقاقير السامة ليقولوا إنه انتحار كعادتهم..

صوفيا: إنك واهم يا قابيل ولا تعلم شيئًا..

غسان: أسامة قال إنه فتح خزانتي السرية وأخذ كل الملفات منها واستخدم خطتي لتصب في مصالحه، هل تعلمين ماذا فعل بها؟

صوفيا: بالتأكيد أعلم؛ فأنا شريكته الآن في كل شيء.. جاء إليّ بعد أن سافرت أنت إلى ألمانيا وعرض خطته بالتخلص من كل الأشخاص الذين يقفون عقبة في مستقبله السياسي ومستقبلي المهني، وبكل بساطة قبلت العرض..

غسان: هل لي أن أعرف ما الذي حدث؟

صوفيا: لم لا، فأنت هالك لا محالة، وحكمك سوف يكون بين يديّ، وأنا أقول لك من الآن إن أيامك باتت معدودة.

بلعت ريقي بصعوبة بالغة وحاولت جاهدًا أن أستخدم سنوات خبرتي لأقرأ لغة جسد صوفيا لأعلم صدقها، لكن الأمر كان مستحيلًا؛ فدماغي

مدوش جرّاء المورفين والصدمات التي تعرضت لها والموقف الذي أنا فيه الآن.. وأكملت لوائل، فقد كان الحلقة الأضعف الذي عن طريقه حاولت – بالنسبة للمجموعة وتقتحمها، لذا كان التخلّص منه وفق خطتك أن تدخل إلى سهلًا جدًا، فتحت قضية المخدرات التي حدثت في المطار من جديد وتم استدعاؤه للمحكمة وتم استجواب زوجته وأطفاله أمامه بطريقة مهينة ومن بعدها شيخه المرتبط به ارتباطًا وثيقًا، وتم الحكم عليه بالسجن خمسة عشر عامًا وبعض التحفيز ورسائل من عائلته وشيخه المفبركة بأنهم يشعرون بالخزي والعار وتبرؤوا منه، وجدناه في اليوم التالي معلّقًا في الحمامات منتحرًا بعد أن وصله الحبل من شيخه كهدية لينهي حياته وينتهي من هذا الخزي لعل الله يتقبل توبته ويغفر له إساءته لعائلته وشيخه..

شهقت بغير قصد ووضعت يدي على فمي..

صوفيا: لماذا أنت متفاجئ؟! أليست هذه خطتك للتخلص من وائل؟ وجدناها مكتوبة بخط يدك..

غسان: هذا صحيح، ولكنني بعد التحقق من الأمر علمت أن وائل ليست له يد في مقتل حيان، واستخدمته كبيدق لتهديد أمن عمار وإيصال رسالة لأسامة حينها، لكنه لا يستحق مثل هذه النهاية.

صوفيا: في الحقيقة لم نتوقع أن يرضخ وائل لهذه النهاية، لكنك طبيب نفسي ماهر وتعلم كيف يُدرس الإنسان وطِباعه، ويبدو أنك نجحت في تشخيص وائل وتستحق نجمة ذهبية على ذلك.. وبذلك تمّ التخلص من الشاهد الأول على تلك الليلة الذي كان من ممكن أن يشكِّل ضررًا على

مستقبلنا.. وبالطبع دسسنا رسالة قلنا إنها وجدت في جيب وائل معزيًا فيها أنك أنت صاحب المخدرات، وأنت رأس الفساد في إدخال المخدرات بصفة قانونية إلى البلد بصفتك طبيبًا نفسيًا وحاجتك لاستخدامها مع المرضى..

وضعت يدي على أذني وصرخت:

– شرٌّ.. لا تسمع، شرٌّ.. لا تسمع، شرٌّ.. لا تسمع..

صوفيا: انتظر كي لا يفوتك الجزء الممتع من الحكاية، فقصة المطار مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالضابط عمار؛ لأنه عندما فُتحت القضية تم اعتباره الضابط الخائن للوطن، وذات الشهود الذين شهدوا ضد وائل شهدوا ضد عمار، ولم يستطع بالطبع الدفاع عن نفسه لأن أسامة وضع كل ثقله للتخلص منه، لذا قاوَم وحاول أن يقدِّم أدلة ووثائق ضد أسامة على أنه هو رأس كل شيء، لكن الفساد في تلك المنظومة هو أساس تماسكها لذلك تمَّ إصدار حكم عسكري على الضابط عمار بالإعدام بالرصاص في منطقة سرية، وتم ذلك في ليلة لا قمر فيها.. تفضَّل، انظر، هذه صورة جثمان الخائن للوطن..

نظرتُ إلى هاتفها الذي وضعته في وجهي برعب لأجد صورة عمار ملقى على الأرض مضرجًا بدمائه وثلاث طلقاتٍ في صدره.. وضعت يديَّ على عيني وبدأت أتمتم:

– شر.. لا أرى، شر.. لا أرى، شر.. لا أرى..

صوفيا: هل أعجبك الشكل النهائي للجثة؟ هل هذا يشفي غليلك؟ إنها تمامًا كما وصفتها أنت في خطتك مضرجة بالدماء وثلاث طلقات في الصدر.. وهذه النجمة الثانية التي استحققتها بجدارة..

غسان: لكنه كان شريكًا وأسامة من أرغمه على أن يلوِّث يديه بالفساد، وهدفه كان التقدم أكثر في العمل ليوقع أسامة وحاشيته..

صوفيا: تمامًا، لذلك وجدنا أن إقصاءه مهم جدًا لعمل أسامة وليصل إلى منصبه بسلام، ولا تنسَ أنه في ذات الوقت هو شاهد على تلك الليلة..

غسان: أرجوكِ لا تقولي بأنكم ستقتلون كل الشهود على تلك الليلة!!

صوفيا: نحن لم نقتل أحدًا.. هذه خطتك أنت ونحن مجرد أداة، ولحسن الحظ توافقت أقدارنا على هدف واحد.. وطبعًا دسسنا في اعترافات عمار قبل تطبيق الحكم عليه أنك كنت الممول وصاحب هذه الأفكار، وأن عيادتك هي مركز العمليات.. وأسامة أرسل رجاله ليملؤوا العيادة بالممنوعات ذاتها التي تمَّ القبض عليها في المطار مع وائل، وبالتالي أصبحت مطلوبًا للدولة كخليةٍ إرهابية تُخِل بأمن الدولة لتعاملك مع ضباط من داخل المنظومة الأمنية ومروِّجٍ للمخدرات عن طريق عيادتك..

غسان: عليكم اللعنة!

سألتها بصوت مرتعش: ماذا عن حميد؟

صوفيا: حميد؟ امم! دعني أشيد بعبقريتك منذ البداية، فخطتك لاختراقه مخيفة وتدرَّس في المدارس الثانوية ذاتها التي استخدمتها كسلاح في وجهه، تقريرك الذي طُلب منك تسليمه إلى وزارة التعليم تم تسليمه باليد من قِبل أسامة، وهذه نقطة حُسبت في صالحه ووسعت مجال داعميه لمنصبه، لأنه أصبح مصدر ثقة عند الجهات العليا في الدولة على أنه حريص على مصلحة الأجيال القادمة.. صحيح، دعني أستذكر مقتطفات من تقريرك العظيم..

«فساد في رأس المنظومة التعليمية.. استغلال للسلطة.. تحرُّشات جنسية.. تاريخ فاسد بالتعاطي..»

في جميع الأحوال صدر قرار من وزارة التعليم بإقالة المدير حميد من منصبه وسحب شهاداته منه، وتمّ التشهير به على وسائل الإعلام وفضح قصته هو وابنه مع الطفل ووالدته بعد أن تمّ تسريب تقريرك المقدم للوزارة، وللأمانة هذه القصة لاقت رواجًا مخيفًا بين العامة وبدأ الناس يخرجون للتظاهر في الشوارع ضد الفاسدين في وزارة التعليم والمدرسين، وبعد يومين من احتقان الشارع وغضب الأهالي انتشر فيديو مصوَّر على وسائل التواصل لخطف ابن المدير وتقطيع أشلائه بعد التفنن في تعذيبه، ثم إرسال كل تلك القطع إلى والده في صندوق كُتب عليه: «العين بالعين»، وبعد أن شاهد حميد ابنه يُقطَّع في الفيديو ويصرخ مناجيًا إياه، وبعد أن وصلته الجثة مقطَّعة تقطيعًا عشوائيًا لم يتحمل عقله كل ذلك، وجُنَّ الرجل وتمّ نقله إلى مستشفى الأمراض العقلية بعد تشخيصه بالجنون من شدة الصدمة، لذا هو الآن يُعالج بالمورفين والكثير الكثير من جلسات الكهرباء التي تنير ما تبقَّى له من حياته..

همستُ رغمًا عني:

– يستحق ذلك، لكن ما ذنب ابنه أن يتعذب ويُقطَّع.

ثم وضعت يدي على فمي ورددت:

– شر لا أقول.. شر لا أقول.. شر لا أقول.

صوفيا: الجزاء من جنس العمل، أليس هذا مبدأك الذي عنونت به خطة التخلص منه.. إنها مبهرة وعظيمة.. كما قلت لك سابقًا تستحق أن

تُدرَّس.. وتستحق نجمتين على هذه الخطة، نجمة لحميد ونجمة لابنه المقطَّع الذي علمنا بأنه هو من كان يستغل الأطفال جنسيًا في المدرسة بحكم أنه ابن المدير، ووالده كان على دراية بتجاوزاته الحقيرة.. وبذلك تخلصنا من الشاهد الثالث على تلك الليلة.. وبالطبع دسسنا شائعة في الإعلام تقول إنك أنت من سرَّبت التقرير الذي وصل إلى الوزارة، وبالتالي تقريرك هو من زعزع الأمن في المنطقة، ونتيجة له أُرتُكبت جريمة مقتل ابن حميد المروِّعة وألبسناك هذه القضية أيضًا.

غسان: أنتم مجرمون سفلة وسوف تموتون شرَّ موتة.

صوفيا: مجرمون أبرياء..

وضحكت كالمجانين:

– أعتقد أنك اكتفيت بهذا القدر، لا أعتقد أن عقلك لديه القدرة على التحمُّل أكثر، وأنا أريدك على قيد الحياة قدر المستطاع لأنتقم منك أكثر فأكثر..

غسان: إذا كنت تريدين ذلك حقًا فاستدعي الممرضة ودعيها تعطيني ٥ مليغ من المورفين لأستمع لما تبقى من إجرامكم ولأقوى على مجابهتكم..

– غباؤك سيقتلك ذات يوم. قالت صوفيا ثم نادت على الممرضة بعد أن زيَّف غسان نوبة أصابته ليحصل على جرعته..

دخلت الممرضة ومعها حقنة فيها ٣ مليغ، لكن صوفيا قالت لها:

– إن المريض بحاجة لأن ينام، لذا ضاعفي الجرعة.

فحصلتُ على ٦ مليغ من المورفين لأغطَّ في نوم عميق..

***

-٣٢-

– قابيل.. هيا استيقظ، أحضرت لك شيئًا تود أن تقرأه قبل أن تموت.. ورمى بكمبيوتر محمول على قدمي..

غسان: أسامة!! لا أعلم بأي وجه تستطيع أن تضع عينك في عيني؟!

أسامة: بوجه الحقيقة أيها القاتل.. تفضَّل واقرأ مدوَّنة حبيبتك التي قتلتها..

غسان: قبل أن أقرأها، ماذا فعلت بالمعلومات التي فيها؟ وكيف استخدمتها لخدمة مصالحك هذه المرة أيها القاتل البشع؟

أسامة: هذه أمور سياسية بين البلدين لا تفهم أنت فيها، لكنني أستطيع أن أقول لك إن حبيبتك الذكية أعطتنا ورقة سحرية كالجوكر تستعمل في

@ART_OF_BOOK

كل الأوقات للضغط على الحكومة الألمانية والفرنسية.. أمّا على الصعيد الشخصي، فقد توسعت أعمالي وصفقاتي التجارية وتستطيع القول بأن تجارتي للممنوعات أصبحت عالمية بفضل جهودكم..

غسان: قابلت صوفيا وتحدثت لي عن اتفاقكم وطريقة تخلصكم من أصدقائكم القدماء، لكنها نسيت سلطان وماجد.

أسامة: أنت قلتها، قدماء، ومعظمهم قد ماتوا بفضل خططك العبقرية..

غسان: تقصد قُتلوا مثلما قَتلت حيان!

أسامة: قُتلوا ماتوا جُنوا، كل ذلك من أيديهم وجرّاء تصرفاتهم؛ ولأنهم مذنبون مثلك أنت، وبالتالي أنت أيضًا ستموت يا قابيل.

غسان: وسلطان وماجد؟

أسامة: ربما لم تتجرأ صوفيا على ذِكر نهاية سلطان، لأنه كان تصفية حساب بينها وبينه بعد أن استغلها في لحظات ضعفها، وهدّدها كثيرًا من المرات بفضح علاقته معها التي كان الطفل موسى نتيجتها، لكن بكل بساطة تستطيع القول إنكَ لن تراه مجدّدًا يا قابيل..

غسان: كيف؟!

أسامة: نقلت صوفيا كل أملاك سلطان بحكم الوكالة التي وقّع عليها، ووضعتها باسم موسى بحجة أن الرقابة والتفتيش لديهما أدلة على أن شركة ماجد وسلطان تقوم بغسيل الأموال لخلية إرهابية خارج البلد، لذا حين شعر سلطان أنه سوف يقع في يد الدولة بجرم كبير وفقد الثقة تمامًا بصوفيا بعد أن سلبته ثروته كاملةً شعر بالهلع.. لذا قام بالتذاكي بإرسال رسالة

إلى مفادها أنه سوف يفضح ما حصل في تلك الليلة إذا لم أؤمّن الحماية له من الدولة وفي ذات الوقت هدّد صوفيا أنه سوف يفضح علاقتهما، وأن موسى ابنه في حال لم تعد له ثروته، لذا كان التخلُّص منه ضرورة، وللأسف وبطريقة غامضة وُجدت جثته في مكب النفايات مقطوعة اللسان، ومشت شائعة أن الخلية الإرهابية التي كان يبيض أموالها قاموا بتصفيته.. وبالطبع لم أسلك يا صديقي من هذه القضية، فبعد التحقيقات في حياة سلطان وُجد أنه قام بتوقيع عقد شراكة معك ينص على توسعة المشفى التخصصي الذي كنت تنوي افتتاحه، وبالتالي نُسبت إليك قضية فخمة وهي تبيض أموال الخلية الإرهابية أيضًا مع شريكك سلطان لبناء مقر جديد تُصدران منه المخدرات والإرهاب..

ما رأيك، تهمة ذكية، أليست كذلك؟

غسان: ذكية!! أنت والإجرام خلقتما في ذات اليوم..

ضحك أسامة ضحكة عالية:

– هذا أجمل إطراء سمعته في حياتي.. ومع ذلك تستحق نجمة ذهبية على هذه القضية، مع أنه تم التخلص من الشاهد الرابع من دون اللجوء إلى خطتك هذه المرة، لكنك كنت أول شخص يكشف سلطان على حقيقته، وملاحظتك بأنه ما إن يخسر ثروته حتى يفقد عقله، وبالتالي يخسر حياته كانت صحيحة.. هكذا هُم مُحدثو النعمة.. أصبحت لديك خمس نجمات ذهبية..

غسان: إذن كنت تستمع إلى حديثي مع صوفيا..

أسامة: أنا أسمع وأرى وأعلم كل شيء، كل شيء في هذه البلاد يا قابيل..

غسان: ماذا عن ماجد؟

أسامة: لا غِنى عنك وعن خططك العظيمة يا قابيل، قمنا بالاستعانة بجهودك الجبارة وذهبت لمقابلة كبير عائلة ماجد، وشرحت له مدى تورُّطه في موضوع تبييض الأموال ودعم الإرهاب، وهذا من شأنه أن يدمر سمعة العائلة وأعمالها.. بعد هذا الاجتماع قرَّر ماجد بشكل مفاجئ أن ينفصل عن صوفيا وينقل جزءًا من ثروته لابنه موسى بالطبع والسفر خارج البلاد على الفور.. لكن ومع الأسف وهو في طريقه إلى المطار انفجر أحد إطارات سيارته فانقلبت السيارة واشتعلت النيران فيها فأصبح ماجد جثة متفحمة في داخلها..

غسان: عليكم أشد اللعنات أيها الأوغاد..

أسامة: بل عليك أنت أشد اللعنات يا قابيل.. لقد قمنا بتنفيذ خطتك التي نصَّت على أن ماجد جزء من عائلة أصيلة، لها مكانتها في المجتمع والدولة، وعندما تشعر العائلة بأن أحد أفرادها سوف يلطِّخ سمعتها بالوحل يقومون بإقصائه على الفور دون أيِّ أدلة أو أثر، لذا مقابلتي مع كبير عائلته سهَّلت المهمة..

وهكذا تمَّ التخلص من الشاهد الخامس، وتمَّ تحرير رقبتي من كل الشهود على تلك الليلة، وفي ذات الوقت تمَّ تحرير صوفيا أيضًا بثروة مخيفة تركها كلا الأبوين.. وبذلك حصلت أنت على النجمة الذهبية السادسة والأخيرة بكل جدارة واجتهاد..

غسان: كم أتمنى أن أحصل على نجمة ذهبية سابعة، واعلم أنها من أجل موتك أيها الحقير..

ضحك أسامة حتى امتلأت عيناه بالدموع وقال:

- هذه النجمة تحصل عليها في أحلامك.. سأدعك الآن لتطلع على الحقيقة ليتم تتويجك كبطل عظيم.. قابيل قاتل أخيه، وعلى كل كتف ثلاث نجمات ذهبية..

أكمل أسامة ضحكته خارجًا من باب الغرفة وتركني وحدي مع كمبيوتر صغير محمول وورقة مكتوب عليها اسم الحساب للمدوَّنة وكلمة السر للولوج إليه..

***

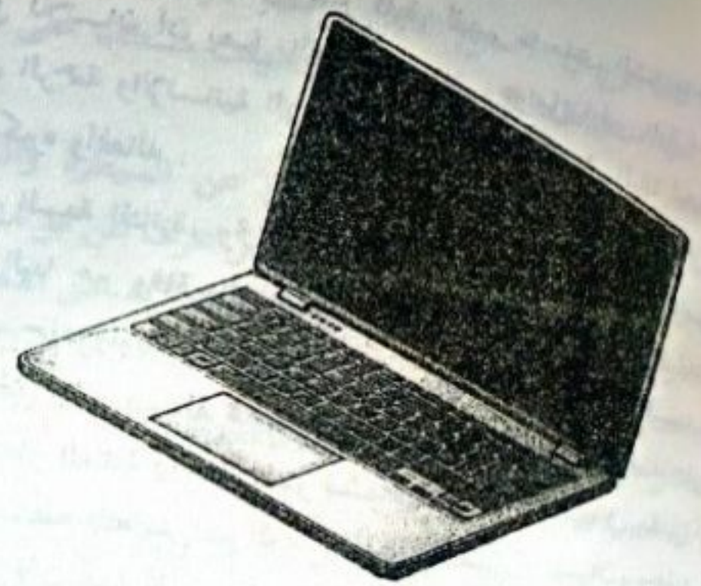

-٣٣-

مدوّنة الطبيبة ميرا

في بداية الأمر لم أكن أعلم شيئًا عن حياة غسان القديمة، كل المعلومات التي باح لي بها كانت مقتضبة، وذلك لم يكن يعني لي شيئًا، كان كل اهتمامي بشخصية غسان اللطيفة الذكية المرحة غالبيّة الأحيان، وأستطيع القول إن العامل المشترك بيننا كان هو حب التعلم والبحث عن الأسرار والأشياء التي غيّرت من مفهوم العقاقير ومساهمتها الفعّالة في العلاجات النفسية، وقعت في حبه عندما علمت أنه يفضّل دراسة وتحليل الحالات النادرة التي عُرفت عبر التاريخ وحتى عصرنا الحالي، وهذا ما كنّا نشغل به غالبية وقتنا وحتى في أجمل لحظاتنا الرومانسية كانت لعبتنا المفضلة هي الطبيب والطبيبة إكس اللذانْ يطرحان الأسئلة الأكثر جدلية في النفس

البشرية بتحريض عوامل الشر تارة، لفهم ما مدى الشر والخبث الذي يمكن للإنسان أن يصل إليه، وبتحريض عوامل الخير تارة أخرى لفهم مدى الرحمة والإنسانية التي يمكن للإنسان الوصول إليها ليصبح ملاكًا في تفكيره وأفعاله..

في السنة الثانية، وفي بداية الفصل الثاني من العام الدراسي تحديدًا وصل إلينا خبر وفاة والد غسان، وهذا الخبر كان كفيلًا بأن يدخله بحالة اكتئاب حاد ونوبة من الصراع النفسي الداخلي مجهول السبب بالنسبة لي، وألحق الخبر برسالة تهديد مخيفة شديدة اللهجة من عمه على أنه هو سبب دمار العائلة وإلحاق العار بسُمعتها، وهو السبب في مقتل أبيه أيضًا لأنه لم يستطع التعايش مع الوضع الذي وضعهم به غسان، وعليه ألا يعود إلى البلد لأن عمه أقسم على قتله أمام الناس أجمعين ليغسل العار الذي ألحقه بهم وينتقم لجميع الموتى الذين كان سببهم قابيل..

نعم، رسالته كانت تقول قابيل طوال الوقت، الأمر الذي دعا إلى الشك والخوف من غسان في ذات الوقت.

حاولت جاهدة تفهُّم موقفه في الأسبوع الأول على أنه كان منهارًا تمامًا، يبكي كالأطفال طوال الليل ويلوم نفسه بجمل غير مترابطة وغير مفهومة حتى يسري مفعول أدوية مضادات الاكتئاب والمهدئات وينام قليلًا، ليستيقظ في منتصف الليل مرعوبًا والعرق يتصبّب منه ويبكي بألم وحسرة أكبر جرّاء الكوابيس التي بدأت تلاحقه حتى طلب مني أدوية أكثر فعالية، تعاطفت كثيرًا معه وأحضرت له حبوب المورفين لمساعدته حتى أصبحت حالته أفضل في الأسبوع الثاني، لكن غسان كان مستسلمًا للاكتئاب وكان متواطئًا مع عقدة الشعور بالذنب حتى اتخذ من المورفين

مهربًا له، فبدأ يخرج في الأسبوع الثالث ليحضر جرعات المورفين ويحقن نفسه بها بجرعات منتظمة ليبدو تائهًا طوال الوقت مستلقيًا على أريكته لا روح فيه..

عندما أدركت أن الموضوع سوف يخرج عن السيطرة والشكوك أصبحت تكبر في عقلي يومًا بعد يوم لأنه لم ينبس بحرف عن كل ما جرى، قررت أن أواجه الموضوع بحزم، وفي إحدى الليالي انتظرته حتى استفاق من جرعته وقلت له: الآن سوف تشرح لي كل شيء منذ البداية وبكل صدق وإلا سأتصل بمركز معالجة الإدمان ليأتوا ويأخذوك معهم، ثم عندما تعود تجد أني قد هجرتك أيضًا.

استسلم غسان في تلك الليلة وكان متعاونًا وروى لي الحكاية كاملةً حسب زعمه بالأسماء والألقاب، وكنتُ معتادةً على تسجيل الملاحظات عن كل شيء في حياتي، لذا سجّلت القصة بحذافيرها لأفهم الترابط ولأنقذ غسان مما هو فيه، لكن قبل انتهاء جلستنا التي أزالت كل شكوكي تجاهه وعزّزت من حبه في قلبي نتيجة تعاطفي معه لأنه كان ضحية لا شأن له في كل هذا الشر، بدأت آثار الإدمان بالظهور عليه؛ ارتعاش في اليدين، عرق بارد على الجبهة، وجه أصفر، اضطراب في النطق، وبدأ يميل إلى العنف أكثر في حديثه، لذا أوقفنا المحادثة واتفقنا على أنه سوف يتناول جرعات مخفّفة خلال الأسبوع لنتخلى عن المورفين ونتنقل إلى الحبوب المهدِّئة التي تساعد على النوم وتحسين المزاج إلى أن يتعافى كليًا..

كان غسان متفهمًا لحالته، لكنه أصبح عاطفيًا جدًا بعد أن أخذ جرعته وسرى مفعول المورفين في دمائه، فبدأ يبكي وينشج بأسى في حضني وهو يعدني بأنه سوف يخرج من هذه الحالة وسوف ينسى كل الماضي في حال

بقيت معه ولم أهجره لنحقق أحلامنا سويًا.. وبالطبع كان هذا وعدي له بأني سوف أعتني به في السراء والضراء وسأساعده على تجاوز هذه المحنة فنحقق مستقبلًا باهرًا في الطب النفسي ونخترق عالم العقاقير لننشر التوعية بين الناس، ونحاول أن نفكِّك كل مركّب خبيث أمثال المورفين لنجنِّب الشباب النهايات البشعة كالتي حدثت مع أخيه حيان.

شعر غسان بالأمان والهدوء، لذا طلبت منه أن يقص عليَّ ما حدث بالتفصيل قبل أن يغادر حيان إلى رفاقه لأنني أعلم أن المورفين يساعد على تحفيز الذاكرة وبالتالي بناء القصة، فسردها كأنه يعيشها من جديد وفعلًا حَبكَ غسان القصة بتفاصيل رتيبة، ومن ضمن هذه التفاصيل لفتت انتباهي ثغرة مهمة فوضعتها في ملاحظاتي عندما قال غسان:

– كان حيان يعاني من صداع في الرأس، فبعد أن أعطيته ما طلبه من المال سألني عن حبوب مسكِّنة وقلت له إنها موجود في جيب السروال مع حبوب مضادات التحسس التي لا أستغني عنها ما دامت الشمس ظاهرة، فعاد حيان وبيده قرصان وشرب من كأس المياه الموجود أمامي وشكرني لأنني أفضل أخ على الإطلاق وغادر..

غفا غسان وهو ينشج ويقول:

– أقسم لك يا ميرا، قال لي إنني أفضل أخ على الإطلاق هذه كانت آخر جملة أسمعها منه قبل أن يموت..

بعد فترة قريبة بدأ غسان الدخول في مرحلة التعافي، وعاد إلى حياته الطبيعية في الجامعة، وأصبح أكثر ضراوة في خوضه في تاريخ العقاقير وتفصيل المركبات ودراستها، حينها وصل إلى منزلنا صندوق مجهول المصدر

لكنه موقع باسم اخترت الاحتفاظ به لنفسي، وعندما فتحته وجدت به الكثير من الصور والتقارير وذاكرة صغيرة، لكنني لم أستطع فك شيفرة التسجيلات ولا حتى قراءة التقارير، لأنها كانت بلغة غريبة غير الألمانية لكني فهمت من الصور أنها متعلقة بتلك الليلة.. ليلة مقتل حيان.

اتخذت قرارًا اعتبرته ذكيًا حينها بأن أخفيت هذا الصندوق بعيدًا عن وجه غسان لخوفي عليه من الانتكاس مجددًا، وكي لا أفقده هذه المرة إلى الأبد.. وبعد أن استعنت ببعض الأصدقاء الذين ترجموا لي حرفيًا ما هو موجود داخل تلك التقارير والتسجيلات علمت أن الشخص الذي أرسل هذا الصندوق يسعى إلى الانتقام وبحاجة للمساعدة للقيام بذلك، خفت أكثر على غسان من أن يصل إليه مرسل الصندوق ويشوّش تفكيره ويعيده إلى ذلك البلد الذي هو بالأساس مهدد بالقتل إن عاد إليه، لذا حاولت جاهدةً إغراق غسان بأبحاثٍ وتحديات تشغل كل وقته وتفكيره وبالطبع أخفيت الصندوق الملعون بكل محتوياته عند صديقة موثوقة، لكن بعد أن سجلت كل ملاحظاتي في ذات الدفتر الذي استخدمته عندما قام غسان بسرد الحكاية لي..

***

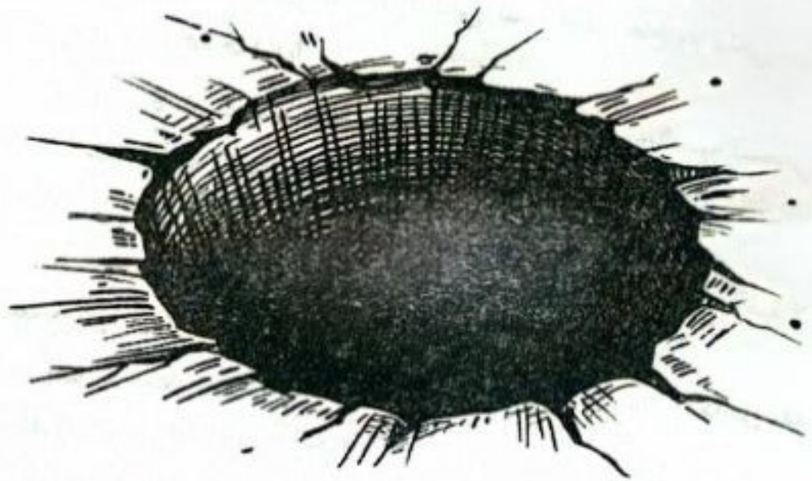

-٣٤-

أسامة: ألم تكتفِ إلى هذا الحد يا قابيل؟

غسان: بالطبع لا أريد عشر دقائق أخرى لأنهي قراءة المدوّنة لأفهم كل شيء..

أسامة: مع الأسف لا يوجد أمامك الكثير من الوقت (وأغلق الكمبيوتر المحمول بعد أن سحبه من يدي).

غسان: قلت لك عشر دقائق فقط..

أسامة: وأنا أقول لك إن محاكمتك سوف تبدأ بعد ساعة من الآن، لذا عليك أن تتجهز لجلسة الاستماع على الفور..

غسان: ماذا! جلسة استماع! لكن ليس لدي محامٍ ولم يبلغني أحد بالقضية المرفوعة ضدي!

أسامة: لا تتحايل يا قابيل، لقد أبلغتك كل شيء وبالنسبة للمحامي فلقد عيّنت لك الدولة محاميًا على نفقتها مع أنك لا تستحق ذلك أيها الخائن..

غسان: لا شيء رسميّ! أيها الفاسدون، لقد أوقعتموني في حفرة لا مخرج منها.

أسامة: انتظر حتى تعلم ما الحكم عليك وحينها تعلم أن في داخل هذه الحفرة الجحيم الذي تستحقه..

غسان: لماذا كل هذا الحقد عليّ؟

أسامة: لأنك فاشل وغبي ومختل عقليًا وتريد اللعب مع الكبار، لذا كما كنت الحمل الوديع سابقًا ستكون كبش الفداء الأخير الآن لكي أضمن استمراري في القمة دون أي منغصات في المستقبل..

***

-٣٥-

– دخلتُ إلى ما أطلقوا عليها جلسة الاستماع ووضعتُ داخل القفص المُطِل على طاولة القضاة الكبيرة، لكنني تفاجأت بعدم وجود أي حضور أو شهود..

صوفيا متمثلة بالمحامي العام الأول، ويجلس بالقرب منها أسامة وعلى الكرسي المناظر لصوفيا جلس من ادّعى أنه محامي الدفاع الذي وضعته الدولة للمرافعة والدفاع عني، وبالطبع دون أي لقاء سابق لي معه أو حتى حديث عابر على أني موكّله..

محكمة..

القضية رقم ١٠٠١

قضية رأي عام..

القاضي: اجتمعنا اليوم بجلسة طارئة بأمر من القيادات العليا، وبأمر من مجلس القضاء العام للحكم على المتهم غسان في جلسة مغلقة لعدم إثارة الفوضى والذعر في الشارع العام، خاصةً وأن جرائم المتهم جعلت من القضية قضية رأي عام والناس قد تجمهرت أمام المحكمة مطالبة بالعدالة.. لذا نحن هنا اليوم لسماع الكلمة الأخيرة من المتهم ليتم البَت بالقرار.. لكن قبل ذلك سأعلن عن لائحة الاتهامات الموجَّهة للمتهم..

القضية الأولى، القتل العمد لأخيك حيان عن طريق تمويله لشراء المخدرات وتسميمه بها..

القضية الثانية، صناعة وترويج المخدرات واستغلال مقر العيادة كغرفة عمليات ومخزن للمخدرات..

القضية الثالثة، تصدير المخدرات عبر المطارات والإخلال بأمن الدولة..

القضية الرابعة، التعامل مع الضباط ورجال الأمن عن طريق الرشوة والإخلال بالأمن القومي للدولة..

القضية الخامسة، تسريب تقارير سريّة من وزارة التعليم لحاجات شخصية والتي بدورها أدت إلى جريمة قتل مروعة، وبالتالي الإخلال بالأمن العام والترويج لنشر الفوضى في البلدة..

القضية السادسة، استغلال الأرض الممنوحة لك من قِبل الدولة بتوقيع

عقد شراكة لبناء مقر جديد عن طريق تبييض أموال المجموعات الإرهابية التي تتعامل معها لصناعة وتصدير المخدرات..

القضية السابعة، تعاطي المخدرات..

الكلمة الآن للمتهم.. هل لديك أي تصريح عن الاتهامات الموجَّهة ضدك؟

صدمة مُريعة انتابتني جعلتني أبدو كالصنم مميكًا بقضبان القفص والدمع يجري على وجهي مغرقًا لما تبقى من ملامحي البريئة، حاولت جاهدًا فتح فمي لأنطق بأي شيء.. لأقول لهم إنني لست مجرمًا ولست قاتلًا ولست قابيل.. لكن على ما يبدو أن صوتي قد اختفى نتيجة الصدمة وبدأت أصدر أنينًا بعد أن وضعت يديّ على عنقي للضغط على حبالي الصوتية لأجبرها على النطق، لكن محاولاتي كلها باءت بالفشل، كل ما صدر عني هو صوت حشرجة واختناق إلى أن انحرت على الأرض وارتفع صوت نحيبي في أرجاء المكان وأنا أشير إلى محامي الدفاع متوسِّلًا له لكي يتحدث بالنيابة عني أو أن يعترض على أيّ من القضايا المرفوعة ضدي، لكن القضية محسومة على ما يبدو، وكل هذا الاجتماع شكلي، وقد تأكد لي ذلك بعد أن شاهدت الضحكة الشامتة على وجه أسامة الذي بسببه نُسبت كل هذه القضايا إليّ.. قبل أن ينطق القاضي بثوان التفتُ إلى وجه صوفيا الذي بدَا متأثرًا وهي تحاول جاهدةً حبس دموعها لتأثُرها بهذا المشهد..

القاضي: بما أن المتهم ليس لديه أي تعليق على التهم الموجَّهة إليه، نعلن عن قرار المحكمة والمجلس القضائي الأعلى في الدولة..

حكمت المحكمة حضوريًا على المتهم غسان بعد دراسة ملف القضايا المنسوبة إليه وتحليل الأدلة ومطالبات الشارع العام بأن المتهم..

مذنبٌ في جميع القضايا..

وعليه تُتخذ فيه أشد العقوبات بالأخذ بعين الاعتبار الخيانة العظمى للدولة لتعاونه مع خلايا إرهابية وتبييض للأموال وقتل وتصنيع وتصدير المخدرات والنيْل من هيبة الدولة وزعزعة أمنها واستقرارها..

لذا يحكم على الجاني غسان بالشنق حتى الموت في الساحة العامة، لتتحقق العدالة، ويصبح عبرة لكل من تسوّل له نفسه بترويع أمن المواطنين والدولة، ويعتبر هذا القرار قرارًا وجيهًا غير قابل للطعن ويتم التنفيذ خلال مدة أقصاها ثلاثة أيام بما يتناسب بالتنسيق مع قوى الأمن العام..

رُفعت الجلسة.

– أُغشِي عليّ عندما سمعت النطق بالحكم وتم نقلي إلى غرفة الحجز التي سأقضي بها ما تبقّى لي من أيام حياتي.

***

-٣٦-

«صحوت لأجد نفسي مرميًا بين قضبان السجن الذي لم أدخله مرةً في حياتي، لطالما استهجنت فكرة السجون، وبالكثير من الجلسات اعلنت امتعاضي من الموضوع على أنه كيف يمكن للمرء أن تقيّد حريته بهذه الطريقة المُذلة، كيف يمكن للعقاب أن يكون بهذه الوحشية التي تُفرض من قِبل أشخاص آخرين على أن يقيدوا حياتك وحركاتك ويقرّروا عزلك عن المجتمع بحجة العقاب على ذنب ما قد اقترفته في لحظة واحدة! لحظة ضعف واحدة أو لحظة غضب واحدة أو عدم دراسة حركاتك أو حتى كلماتك لمرة واحدة من شأنها أن تؤدي بك إلى العزلة القاتلة السامة التي يدخل سمُّها في دماغك على الفور وهو أشد وأقسى أنواع السم فتكًا بالإنسان، مع أن السجانين أو الشخص المسؤول عن قرار السجن

له وجهة نظر وحجة مثالية، بأن يعزل الإنسان المؤذي أو المجرم عن بقية المجتمع ليكف أذاه بطريقة أو بأخرى، وفي ذات الوقت فكرة القضبان والجلوس وحيدًا ليتأمل المجرم أو المتهم خطاياه ويتراجع عنها ويهذّب من نفسه ويشعر بالندم جرّاء تلك اللحظة التي بسببها من الممكن أن يقضي العديد من السنوات وهو يندب ويبكي على الإقدام عليها، ولهم حجة أخرى لا بأس بها، هي أن العقوبة تضبط المجتمع وتكسر الحاجز الشيطاني وتضع حدًّا لكل من يخطر على باله بأن يتجاوز على الناس بالفعل أو بالقتل، وبالتالي السجن رادع مهم للحفاظ على أمن المجتمعات، وفي ذات الوقت هو وسيلة لإظهار مفهوم العقاب والعدل الذي تختلف عليه الناس جميعًا..

كل ذلك من الممكن أن يُغضَّ الطرف عنه إن كانت العقوبات فعلًا ردعية وهدفها إصلاح الناس وبثّ الأمان بين المواطنين، لكن مفهوم السجن مدى الحياة أو الشنق وإنهاء حياة إنسان.. هذا الذي أقف عنده.

كيف لك أن تقرّر إغلاق ملف إنسان مدى الحياة وعدم الإيمان بفرصة ثانية مهما بلغت جريمته من قذارة وشناعة!

كيف لك أن تقرّر بأن هذا الإنسان غير قابل للإصلاح وأنت تؤمن بتغيُّر حالك بين ثانية وأخرى!

هل يُعقل أن إنسانًا ارتكب فظائع وجرائم تقشعر لها الأبدان سُجن بين أربع جدران والتحق بنظام عقوبات صارم وجلس يكلِّم تلك الجدران لأيام وسنوات عداك عن التجاوزات التي تطاله في المكان القابع فيه نتيجة الأخطاء الفردية والكثير من الضغوطات والحالات النفسية التي يمر بها

والتي من شأنها أن تجعل الإنسان إنسانًا آخر بغير صفات وبغير ملامح حق، أن تكون غير كافية وغير مرضية لإحلال العدل.

ما الإصلاح الذي تريد أن تصل إليه كصانع قرار عندما تحكم بالسجن المؤبّد على الجاني؟ ما الحكمة من هكذا قرار أبدي غير أنه يدمر النفس البشرية شرّ دمار ويظهر الجانب القمعي والسادي على عكس ما يدعون على أنه جانب إصلاحي وردعي؟!

دقيقة غضب واحدة، لحظة ضعف واحدة كافية بأن ترسلك إلى جحيم السجون المخيفة والمظلمة لتتعفن فيها إلى الأبد!

كل أفكاري هذه أستطيع تجاوزها وحتى المُضي معها للكثير من الأسباب غير المقنعة وغير فعّالة حق في المجتمعات، ومع ذلك أتفهّم مشاعر الغضب والانتقام لأهالي الضحايا الذين عانوا أو فقدوا أحبتهم نتيجة ظلم الجاني لأنني أنا شخصيًا أحد هؤلاء الضحايا.. مع كل هذا وذاك، ففعلُ القتل لا يُبرّر عندي ولا يدخل في قاموسي تحت أي ذريعة.

هل فكّرت يومًا بمعنى القتل وإزهاق روحٍ بشرية؟!

أن توقِف حياة شخص ما عند لحظة معينة وتنهي فيها مشاعره، حياته، صفاته، وتلغي قدرته على التعافي والتغيير والحكم المطلق عليه بأنه لا ولن يتغير؟! أن تصبح إلهًا في قرارك بسلْب روحه وإنهاء كينونته؟! التعالي والتكبُّر بالحكم والتباهي بقدرتك على إزهاق الأرواح!

لا شيء يبرّر القتل ولا شيء يبرّر مثل هذه الأحكام التعسفية التي من شأنها أن تجرّد الإنسان من إنسانيته..

كلنا بشر، وكلنا نخطئ ونصيب، وكلنا يجب أن تكون لنا فرصة ثانية!

ولا يجب ان نحرَق او نجرّد من حقِّنا في الحياة بسبب تلك اللحظة الشيطانية الخائبة، بل يجب العمل على ترويضها واصلاح النفس من كل شرور والإيمان بتعدد الفرص..

دعونا لا ننسى ادّعاء مخترع فكرة السجن على أنه رذعي واصلاحي وليس قمعيًا وأداةً لإزهاق الأرواح..

ولنعيد التفكير بأن لحظة ضعف واحدة قد تدفع حياتك ثمنًا لها..»

قاطع أفكاري وقوف أسامة على بوابة سجني رامقًا إياي بنظرة البؤس والشماتة التي أجّجت نار غضبي، إذ وقفت لأقترب من قضبان الحديد الباردة محاولًا إطلاق الشتائم في وجهه، لكن لا جدوى من كل ذلك؛ فصوتي اختفى كليًا ولم أعد قادرًا على النطق وبتُ أئنُ مسلوب القوى ممسكًا حنجرتي التي طعنتني وخذلتني في أمسِّ حاجتي إليها..

خابت آمالي عندما ارتفعت ضحكات جلادي الشامت..

تراجعتُ خطوتين وأغمضت عينيَّ من قذارة المشهد كي لا يبقى عالقًا في بالي خلال ساعاتي القليلة المتبقية..

أسامة: يبدو أنك لم تعد تشتاق لرؤيتي دكتور قابيل غير المحترم..

آه صحيح، غير قادر على الرد الآن، أخرستك عقوبتك المستحقة..

لطالما تساءلت: ما شعور المرء عند اقترابه من حافة الموت؟ دعني أبسط سؤالي لك لأنني أعلم أن إدمانك للمورفين قد خرب ما تبقى من دماغك وأصبحت أغبى مما كنت عليه..

ما الأفكار التي تراود الإنسان عندما يعلم أنه سوف يموت في اليوم الفلاني أو الساعة الفلانية؟! هل بدأت بتخيُّل شكل زنزانتك في الجحيم؟!

هل بدأت بتحضير خطاب جيد لتبرّر لأخيك قتله؟! في الغالب سيكون لقاؤكما حميميًا، هابيل وقابيل!! للأمانة موقف لا أُحسد عليه..

تمنيت أن تعود قدرتي على الكلام ولو بجملة واحدة لعلّي أستغلها بنعته بأحقر الصفات التي يمكن قولها في مثل هذه اللحظات، لكنني اخترت الحفاظ على هدوئي لأحرمه من لحظات النشوة والتمتُّع بمنظري الحقير هذا.. لكن هدوئي لم يمنع أفكاري من الرد على أسئلته المؤذية إذ قلت في نفسي:

– إنني لا أشعر بأنني سوف أموت أو بالاقتراب حتى من حافة الموت لأنني على يقين بأن روحي البريئة سوف تلاحقه وتلعنه بقية حياته.. وبالطبع لم يتسنَّ لي الوقت لأفكِّر أين سوف تكون نهايتي فلا شكَّ عندي في العدالة النهائية وأنا أعلم أني بريء..

أسامة: لم يعد لديك الكثير لتفكِّر فيه، لذا، قررت أن آتي لك بمدوَّنة حبيبتك المقتولة لتكملها وتقرير الطبيب الشرعي لوفاتها مطبوعٌ على ورق من أجل أن تموت وأنت على علم ومعرفة بكل شيء مرة واحدة في حياتك الغبية.

رمى الأوراق داخل الزنزانة وغادر بعد أن بصق على الأرض ونعتني بأبشع الشتائم قذارة على وجه البسيطة..

– لا بأس، كلُّ إناء ينضح بما فيه.

***

-٣٧-

مدوّنة الطبيبة ميرا

توالت الأيام بعدها وشعرت بالراحة عندما بدأ غسان بطيّ صفحات الماضي، وبدأ يكتفي ببعض المهدئات التي تساعده على النوم بين الحين والآخر إلى أن حان وقت مغادرتي مع رجال الدولة في تلك الليلة، وبالطبع أخذت معي مفكّرتي التي كانت فيها كل تفاصيل الحادثة.. بعد حوالي سنتين من غيابي وعندما أيقنت أن الموضوع سوف يتطلّب المزيد من الوقت قبل تواصلي مع غسان وإعلامي له بكل ما حدث، قررت بأن أحل اللغز الذي لطالما شغل باله وأجعله كفّارة لذنبي الذي اقترفته بحقه.. وبعد أن حصل ما حصل في إفريقيا ونُفيت إلى سجني الخاص وجدت

الوقت والسكينة لكسر حلقة اللغز وفهم الأحداث بترتيبها الحقيقي، وعلى ذلك اتخذت قرار الإدمان على الكحول وإتقان أعراض متلازمة كورساكوف لأنها كانت سبيلي الوحيد للعودة ولقاء غسان، لعله يغفر لي ما اقترفته وفي ذات الوقت أعلمه بحلِّ لغزِ تلك الليلة، لا أنكر أني عانيت كثيرًا وبالفعل فقدت جزءًا من ذاكرتي، وغالبية النوبات التي كانت تصيبني ليست كلها مفتعلة، لكنها في النهاية أدّت مهمتها ولم تذهب معاناتي سُدًى..

والآن بعد أن وصلت إلى المشفى وطبّقت الخطة بإحكام مع ماجدالينا، الممرضة المخلصة الرافضة للسلوك النازي ولقتل البشر وهروب القاتلين من دون حساب، وبتعاونها تم التحري عن العديد من التقارير التي وضعتها في ملفٍ خاص في هذه المدونة أشرح فيها بإسهاب المخططات التي تقوم بها القوات النازية بمساعدة عدة دول أخرى لاختراع العقاقير المميتة، ليتم استخدامها في الحروب القادمة، وبالطبع توجد الكثير من الأسماء لكبار الضباط والسياسيين والأدلة الدامغة على المناطق التي تمّ تجريب هذا النوع من الأسلحة عليها، وبالطبع كل الملفات التي تدين حادثة إفريقيا، لذا أرجوك يا غسان أن تفضح إجرامهم في كل مكان بأن تصل هذه الملفات والأدلة إلى الإعلام لوقفهم قبل فوات الأوان..

أمّا بالنسبة لمقتل حيان، فدعني أذكّرك بالدرس الأول في مفهوم العقاقير والتسمُّم الدوائي القاتل..

الأجواء في تلك الليلة –ليلة مقتل حيان– كانت صيفية، وأنت لديك حساسية تجاه الشمس وبالتالي لا تغادر دون مضادات التحسس

(هيستامين) وعندما جاء حيان وطلب منك حبوبًا للصداع، قلت له إنها في جيب سروالك، ومن هنا بدأت الحكاية..

إذ يبدو أن شكل الحبوب اختلط عليه وأخذ من الهيستامين على أنه مسكّن للصداع وذهب إلى حفلته تلك الليلة.. لنفرض أن نسبة المادة الدوائية كانت ٥ مليغ وتناول اثنتان منها بالتالي فقد تناول ١٠ مليغرام مع أن الجرعة التي ينصح بها هي ٥ مليغ فقط في اليوم الواحد، والهيستامين بحاجة إلى وقت على الأقل ٤ ساعات ليصل أداءه إلى ٨٠ بالمائة، في هذه الأثناء بدأ حيان بتعاطي المورفين الذي يتعارض بشدة مع الهيستامين، وتفاعُل العقارين يؤدي إلى الموت الحتمي نتيجة التسمُّم الخطير، وتثبت الدراسات أن نتيجة خلط العقارين هو الموت المحتوم بنسبة ٩٠ بالمائة، لكن ما زاد الطين بلة تناول الكحول الذي سرّع من العملية ليجعلها حتمية..

وتبقى لنا دراسة نسبة الـ ١٠ بالمائة المتبقية كي نبعد التكهنات، في هذا الخصوص قمت بإجراء بعض التحاليل والدراسات على الموضوع، واكتشفت أن اختلاط العقارين مع الكحول يمحو أثر الهيستامين في الدم في التحاليل العادية، وبالتالي حين حوّل حيان إلى المشفى لم تظهر لهم النتيجة الصحيحة والحقيقية، أو لم ينتبهوا إلى وجود مثل هذا العقار الذي من شأنه أن يجعل التسمم مميتًا بنسب أعلى واكتفوا بوجود آثار للمورفين والكحول الذي من شأنهما أن يكونا قاتلين أيضًا لكن بنِسب أقل..

لذا يؤسفني القول إنك كنت أنت القاتل البريء كل ذلك الوقت، واتهامهم لك بالقتل هو صحيح بطريقة أو بأخرى، ففي النهاية، الحبوب التي تناولها أخوك تعود إليك، ولا يمكن لأحد أن يعلم نواياك حينها إذا

كان بالفعل هناك حبوب أخرى في سروالك، أم أنك تقصدت ذلك، لذا موضوع لقب قابيل يعود إليك.. والآن اجلس وحدك وتذكّر نواياك تلك الليلة لتفهم حقًا إن كنت أنت قابيل..

لإثبات الموضوع لك ولعقلك الرافض لأي احتمال تكون أنت فيه المذنب تطلّب الموضوع المجازفة، ولقطع الشكِّ باليقين قمت بسرقة الهيستامين منك في آخر زيارة لك، وساقوم بافتعال نوبة هستيرية تتطلب الكثير من المورفين لتهدئتي، وبالتالي جعل العقارين يختلطون في دمي، ومن ثم تناول كاس من الكحول الذي أمرتُ ماجداليا بأن تسرّبه لي مع أحد أصدقائها القائمين في المشفى لإثبات ذلك لك، بالتالي لدينا خياران هنا؛ إمّا أن أموت نتيجة التسمُّم الحاصل فيقوم المشفى بالتحاليل الأولية وتُظهر النتائج وجود كحول ومورفين، وتُغلَق القضية بتجاهل الهيستامين، وتتكرّر قضية مقتل حيان، وأكون على حق في فرضية أنك قابيل حقًا بعد فهم نواياك، أو ان اكون على خطأ وأعيش بعد ان يتم السيطرة على التسمم ولا يكون للهيستامين أي دور في جعل هذا التسمم مصيره الموت الحتمي، وبالتالي لا تصلك مدوّنتي هذه، وأخرج من المشفى لأسافر معك لأنك حجزت التذاكر لشخصين، وبالطبع تكون حتمًا لست قابيل، والآخرين هم المذنبون الحقيقيون وعليهم وعلى حيان يقع اللوم ولا شان لك في ذلك..

وفي ذات الوقت أكون قد اكتشفت سلاحًا فتّاكًا جديدًا، وطريقة قتل جديدة خالية من الآثار وأكون مجرمة للمرة الثانية بعد إجرامي الأول ومشاركتي في اختراع عقار أدى إلى مقتل ٥٠٠٠ شخص والحصيلة

بازدياد، وسيتذكّرني التاريخ على أنني من أسوأ المخترعين، لأنني ساهمت في دمار بلاد وإزهاق الملايين من الأرواح في الحروب القادمة.

لذا أقول لكَ: إنني أستحق الموت فعلًا، ليس هذا وحسب، بل إنني أنا التي أريد الموت لأنني تعبت من الحياة العبثية التي الحكم فيها للأقوى وليس للأفضل، وتعبت أكثر من الكوابيس التي تطاردني أثناء نومي، ومن الهلوسات التي ملأت يومي..

تبقّى عليك كشف الحقائق إن استطعت لتستقر روحي بسلام، وإلا ساكون مجرد رقم يُضاف إلى سِجِل ضحايا الحياة الظالمة مثل حالتك، وحينها نلتقي أنا وأنت يا قابيل في الجحيم.. مجرمون، لكننا أبرياء.

أتمنى منك أن تستطيع مسامحتي على كل الأذى الذي ألحقته بك..

مع حبي

ميرا

***

-٣٨-

تقرير مشفى الحالات النفسية النادرة في مونيخ..

في ليلة الأربعاء، وفي تمام الساعة العاشرة مساءً، تعرّضت المريضة ميرا إلى انتكاسة من الدرجة أ، وتطلّب الأمر إعطاءها جرعة مزدوجة من المورفين ١٥ مليغ وريدي حتى هدأت واستطاعت النوم، وفي الجولة الصباحية تمام الساعة السابعة صباحًا وجدت المريضة متوفاة على سريرها دون اي آثار اختناق أو كدمات توحي بأن الوفاة قد حدثت بفعل فاعل، وخلال التقييم الأوّلي أظهرت النتائج أن المريضة كانت بحالة صحية مستقرة قبل الوفاة، لذا تمّ تحويل جثمانها إلى الطبيب الشرعي الذي بدوره حدّد سبب الوفاة بعد إجراءه التحاليل ومعاينة حالة الجثة، وأظهرت

@ART_OF_BOOK

النتائج أن سبب الوفاة الرئيسي هو اختلاط المورفين الذي تمّ إعطاؤه للمريضة قبل وفاتها مع الكحول الذي وُجد بنسبة عالية في دمها، وعلى إثرها أغلقت القضية وفُتحت قضية أخرى، وهي: مَن سرَّب الكحول لمريضة كورساكوف؟ وبعد مراجعة كاميرات المراقبة تم إلقاء القبض على ممرضة كانت قد سرَّبت لها زجاجة من الكحول قبل تعرُّضها للانتكاسة، وبعد التحقيق معها اعترفت بأن عشيق الضحية الذي جاء لزيارتها في الآونة الأخيرة هو من دفع مبلغًا طائلًا لوصول زجاجة الكحول هذه للضحية في مثل هذا الوقت، وعليه تمّ رفع هذا التقرير للجهات المختصّة للقيام بالتدابير المناسبة.

***

-٣٩-

ارتعدت فرائصي بينما أحاول قراءة التقرير والمدوّنة مرة بعد مرة محاولًا تفنيد السطور لعلّي أفهم ما تراه عيناي، لكن عقلي المشوّش لم يساعدني على الفهم.. جبهتي تندّت.. فقدت النطق.. ويبدو أنني سأفقد بصري من كثرة البكاء الذي لم أستطع إيقافه.. أفكاري مشتّتة.. ألمّ في كل أرجاء جسدي.. أشعر أن روحي تؤلمني... أنا قابيل!

أفنيت حياتي عبثًا محاولًا إثبات شيء غير حقيقي.. أشعر بعذاب غير إنساني..

لا أتذكّر ماذا كانت نواياي تلك الليلة!

تنتابني هلوسات طارئة وشعور بالوهن.. يبدو أنني أعاني من أعراض

الانسحاب لكن الوقت غير مناسب.. كل ما أحتاجه الآن تلك الكريات الذائبة.. الكريستال اللامع.. ليطهّرني من شعوري.. حازوقة مؤلمة تأتي من أسفل البطن تبعها قيء.. هلوسات طارئة متسارعة.. رأسي يضرب قضبان الحديد حتى سال الدم على وجهي.. يبدو أنني بحاجة لهذا الدم لأغسل عاري.. لا أرى شيئًا.. ظلام ممزوج بلون خضاب الدم.. رأسي ما زال يضرب القضبان مُصدِرًا لصوت مزعج امتزج مع أنيني.. أريد أن أموت.. فُتحت الزنزانة.. في وسط ذلك الظلام أرى لمعان الحقنة.. منقذي.. تعالي إليّ.. شعرت بها تُغرز في وريدي.. انخفض أنيني.. شعرت بروحي فارغة.. انسلخت روحي عن جسدي الثقيل المضرج بالآثام.. لا جسد يحتويني.. أرى البداية.. أرى النهاية.. أرى الجحيم..

ظلام دامس.

***

-٤٠-

-دُقّت ساعة الصفر.. دُقّت الأجراس وتأهب الناس والحراس بعد أن جاء أحد الحراس ليبلغني بأن ساعتي قد حانت وسيتم أخذي إلى الساحة العامة لإجراء الحكم بحقي..

ترك لي لباسًا قطنيًا أبيض خفيفًا ارتديته بتثاقل وبأس، وبخوف لم أعرفه من قبل.. بدوت فعلًا كالحمَل الوديع أيام العيد.. تنقصني الأجراس والزينة.. وجدت معطف طبيب أبيض ضمن اللباس الذي ينبغي عليّ أن أرتديه مطبوع عليه باللون الأحمر كلمات محاطة بدوائر سوداء.. قابيل.. مجرم.. إرهابي.. جهنم.. قصاص.. ارتديته دون مبالاة لتكتمل الصورة، وتحوّلت بارتدائي له من ذلك الحمَل الوديع الذي يضحّى به ويقدّم قربانًا

للتقرب من الإله إلى ذلك المجرم الشيطاني الذي مصيره جهنم وبئس المصير..

فُتحت بوابة السجن وفريق من الحراس اقتادوني إلى سيارة النقل بعد أن ألقوا الكثير من النكات اللئيمة على مظهري المخيف.. قيّدوني بسلاسل ثقيلة ممتدة من العنق إلى اليدين ومنها إلى القدمين لتعوق حركتي وتضيّق الخناق على أنفاسي التي كنت بالكاد ألتقطها..

وصلتُ الساحة العامة وسط تجمهُر الناس بطريقة تراكمية مخيفة.. فُتحت أبواب سيارة النقل لترتفع معها صيحات الاستهجان.. وضعتُ قدميّ على الأرض رافعًا رأسي لأرى الشمس ساطعةً بنورها.. لم أتأثر بأشعتها وكأنها تأثرت لحالتي التي يُرثى لها وشعرت بظلمي لتحيطني بنورها العظيم.. انتقلت بنظري إلى الأمام لأرى الجماهير الغاضبة العازمة على رؤية مَلَك الموت اليوم يقتصُّ مني..

شَكَّلَ الحراس ممرًا وسط الساحة ليصل إلى منصة الإعدام التي بدت بعيدةً جدًا عن المشهد.. ومن خلفهم ارتفعت الأصوات والشتائم.. رُفعت الكثير من اللافتات التي تحمل الكثير من الحقد والغضب في كلماتها.. اقتلوا قابيل.. الموت لقابيل.. اقتلوا الطبيب الإرهابي.. اقتلوا مصدر الشر لأولادنا.. القصاص من المجرم..

كلهم كانوا متفقين على الموت، لا أحد منهم يطلب الرحمة أو حق سماع الحقيقة.. اجتمعوا كلهم ليشاهدوا الموت.. ما أغرب الإنسان حين يصاب بحُمّى الجماهير! يفقد فرديته.. يفقد إنسانيته.. ويندمج مع القطيع..

تقدمت خطوتين بعد أن ثبّتُ اتجاه رأسي على الأرض ممسكًا بالسلاسل لأحاول رفع ثقلها عني، لكنني بدوت ذليلًا خانعًا لحكمي..

بدأت الجماهير القريبة تبصق عليّ من كل الجهات وتهافتت بقايا الطعام والأحجار من كل حدب وصوب.. حاولت جاهدًا تجنُّب بعضها، لكن قيدي لا يساعدني على رفع يديّ لتغطية وجهي ورأسي.. أصبتُ بكثير من الخضروات الصلبة التي أنهكت قواي حتى جاءني حجر كبير نسبيًا ليصيب رأسي، فبدأت الدماء تغطي تفاصيل وجهي.. حينها خارت قواي ووقعت على ركبتيّ لألتقط أنفاسي التي باتت تتصاعد مختلطةً بالدم والقذارة.. حتى جاء أحد الحراس ليضربني بسوطٍ على ظهري أحسست بأنه قصمه إلى ستة أجزاء بعدد النجوم والضحايا الذين ماتوا بسببي..

واقترب من أذني التي أصمّها الألم وصرخ بأن أكمل مسيرتي حتى أصل إلى المنصة.. وقفت جاهدًا وأكوام القذارة تتساقط بازدياد فاتخذت قرارًا بتسريع خطاي.. يبدو أنه قرار نابع من حلاوة الروح مع أنني على دراية بأنها سوف تُسلب مني.. رفعت رأسي لأرى أنني بتُّ قريبًا من المنصة، ارتفع الأدرينالين في رأسي، بدأت أئنّ بفرح لأنني سوف أصل إلى موتي المحتوم.. بدأت الجماهير برمي الزجاج أمامي ليتكسر لأتوقف مذعورًا بعد أن خابت آمالي للوصول إلى الخلاص.. نظرت إلى الحراس خلفي نظرة الشفقة ليرأفوا بحالي لأراهم يضحكون بشماتة ليرفع الجلاد منهم سوطه في الهواء بعد أن تأكد أن الطريق امتلأ بالزجاج المحطّم وأشار برأسه أن أتقدّم.. وبقي يضرب بسوطه في الهواء لتصدُر عنه أصوات أقسى عذابًا من ضربه لجسدي الممزق.. نظرت إلى قدميّ الحافيتين لتختلط دموعي

بدمائي.. رفعت رأسي إلى السماء لأناجي.. لأطلب الرحمة.. لأرى ان الشمس باتت أكثر لؤمًا.. يبدو أنها تخلّت عني أيضًا.. ومع صدور صوت رنّة السوط المتكرر في الهواء بدأت قدماي بالتحرّك إلى الإمام بطريقة لا إرادية.. ثلاث خطوات متمايلة ممزوجة بصوت آهاتي وأنيني وبكائي كانت كافية ليطلق الحضور أعلى الضحكات.. كأنهم سمعوها نكاتًا مضحكة.. لا أشعر بقدمي ولا بظهري ولا برأسي.. لا أشعر بشيء أبدًا.. أريد الوصول فقط.. أريد الوصول إلى موتي المشتهى.. خطوتان تفصلاني عن المنصة، لكن قدميّ عجزت عنهما، لذا اخترت الزحف على ركبتيّ ويديّ لأصل مشوّهًا بالكامل.. فاقدًا ومجرّدًا من كل الملامح الإنسانية.. فاقدًا لذاتي.. فاقدًا لروحي المعذّبة.. شعرت بسعادة غامرة وضحكت.. نعم ضحكت وتملكتني رغبة عارمة بالصراخ على أنني وصلت.. نعم، أنا هنا وصلت..

عمّ الهدوء فجأة بعد أن جاء اثنان من الحراس ليساعداني على النهوض وخلع تلك السلاسل الغليظة.. تكتّفت يداي خلف ظهري بحبل لُفّ حول خصري لتثبيتي وأوقفاني على كرسي خشبي تحوّل لونه إلى الأحمر الدامي في عجالة.. حينها اكتمل المشهد عندما فتحت عيناي لأرى الساحة الكبيرة بحشودها الغفيرة وذلك المسار اللعين الذي مشيت عليه مشية العار المخزية من وسط الحلقة التي صُنعت بإتقان من ذلك الحبل المتدلّي من الأعلى الذي يبشّر بالنهاية.. أشعر بالبرد لا بالخوف.. أشعر بالامتلاء لا بالفراغ وسط هذا الهدوء.. سمعت صوت أقدام الجلاد تتقدم للوقوف خلف كرسي الحكم لتنفيذه.. سمعت صوت قطرات الدماء

المتساقطة من ذات الكرسي ترتطم على منصة الإعدام.. تردّد اللزجة صوت القاضي الذي سوف يأمر باللحظة المنشودة يقول:

- أيها الحضور الكرام.. اجتمعنا اليوم لتنفيذ الأحكام الصادرة بالإعدام شنقًا على المُجرمَينِ..

الأول الذي يُعرف باسم الدكتور غسان والملقّب بـ قابيل على يمين المنصة..

والثاني هو سفاح العائلة الذي قتل عائلته بدمٍ بارد على يسار المنصة.. ليتم تنفيذ الحكم بأمر واحد، ويتم القصاص منهم في لحظة واحدة، وأريد أن أذكّركم بأن..

شردت أفكاري عن المتحدث بذهول وعدم فهم.. ماذا؟!! سفاح العائلة! أشحت بنظري إلى يسار المنصة لأرى مشنقة أخرى قد عُلّقت بالقرب مني.. يتدلّى منها ذات الحبل ويقف على ذات الكرسي بذات الشكل الذي أقف عليه شخص مثلي تمامًا.. حاولت جاهدًا التعرُّف على شكله الذي بدَا من المستحيل رؤية ملامحه.. لكنني عرفته.. إنه ذلك المتهم الذي حاولت علاجه ونجحت بتأخير الحكم عليه في المحكمة وقضيته كانت قضية رأي عام أيضًا.. عليكَ اللعنة يا أسامة! عليكِ اللعنة يا صوفيا! ما أشد حقدكما وما أقسى قلوبكما! اختاروا ذات اليوم الذي سوف أموت فيه، بل ذات اللحظة! هذا أشد انتقام سيعرفه التاريخ.. هذا أشد ظلم ستتحدث عنه الملائكة والشياطين.. ستهتز السماء وستزيّن جهنم لنا نحن العابِران على طريق العار.. نظرتُ مرة أخرى من وسط حلقة

موتي لأرى لافتةً كبيرة تحمل عبارة:

(أعدك أيها البطل أنك ستتوّج بنجمتك السابعة والأخيرة.. لكن كان عليك أن تكون الضحية.. قابيل.. التوقيع ص)

– ابتسمتُ.. بكيتُ.. فرحتُ.. غمرتني نشوة النهاية بعد أن وضعوا رأسي داخل حلقة الحبل.. عاد سمعي للمتحدث وهو يصرخ ويقول:

– فليصرخ الجميع بالعد تنازليًا لتتم لحظة الإعدام..

ارتفعت الأصوات:

عشرة..

تسعة..

ثمانية..

سبعة..

– ارتفعت أصوات ضحكتي..

ستة..

–امتزجت مع بكائي..

خمسة..

–الأدرينالين ينشّط أحبالي الصوتية..

أربعة..

–ألتفت برأسي لتلتقي عيناي بعينيْ أسامة الذي كان حاضرًا في الصف الأول بين الحضور..

ثلاثة..

–أصرخ بكل ما تبقّى لي من قوة وأنا أضحك فرحًا..

اثنان..

–نعم، أنا قابيل..

واحد..

–نعم.. أنا قابيل.

تمت

رسالة شكر

أدين أولاً بالشكر لقرّائي الأفاضل
الذين أتاحوا الفرصة لكلماتي لدخول قلوبهم وعقولهم..
كل الشكر والتقدير ل..
الدكتور الشاعر وليد الحراكي
الصيدلاني أحمد الباشوري
لإيمانهم بقلمي ولمساهمتهم الكريمة في إظهار هذه الرواية بأفضل صورة ومحتوى..
وأخيراً، زوجتي الحبيبة، الشعلة التي أنارت قلبي وعقلي إلى الإبداع..
قتيبة

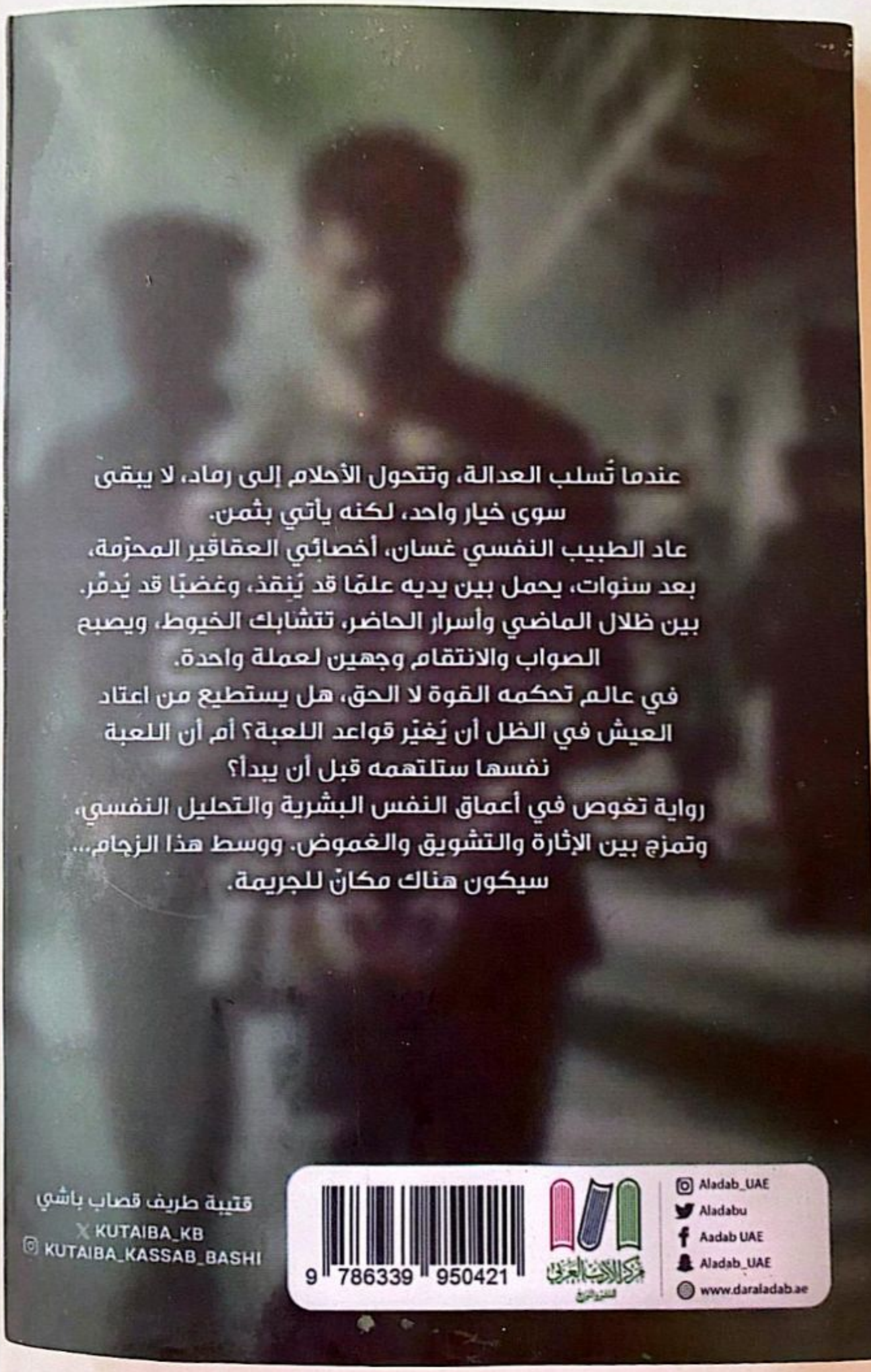
عندما تُسلب العدالة، وتتحول الأحلام إلى رماد، لا يبقى
سوى خيار واحد، لكنه يأتي بثمن.
عاد الطبيب النفسي غسان، أخصائي العقاقير المحرّمة،
بعد سنوات، يحمل بين يديه علمًا قد يُنقذ، وغضبًا قد يُدمّر.
بين ظلال الماضي وأسرار الحاضر، تتشابك الخيوط، ويصبح
الصواب والانتقام وجهين لعملة واحدة.
في عالم تحكمه القوة لا الحق، هل يستطيع من اعتاد
العيش في الظل أن يُغيّر قواعد اللعبة؟ أم أن اللعبة
نفسها ستلتهمه قبل أن يبدأ؟
رواية تغوص في أعماق النفس البشرية والتحليل النفسي،
وتمزج بين الإثارة والتشويق والغموض. ووسط هذا الزحام...
سيكون هناك مكانٌ للجريمة.
قتيبة طريف قصاب باشي
KUTAIBA_KB
KUTAIBA_KASSAB_BASHI
9 786339 950421
Aladab_UAE
Aladabu
Aadab UAE
Aladab_UAE
www.daraladab.ae